سلسلة تبسيط القراءة الإسلامية

المواعظ

من كتاب

صيد الخاطر

للإمام ابن الجوزي رحمه الله

٥١٠ - ٥٩٧هـ

- التفكر في عواقب الدنيا.
- سبب المصائب والبلايا.
- أقبح الذنوب.
- فهم معنى الوجود.
- تعجيل التوبة قبل الندم.
- حكمة.

جمع وترتيب

وليد مراد



المواعظ

من كتاب

صيد الخاطر

للإمام ابن الجوزي رحمه الله

الفقير إلى عفو ربه
أحمد أبو زيد كامل

سلسلة تبسيط القراءة الإسلامية

المواعظ

من كتاب

صيد الخاطر

للإمام ابن الجوزي رحمه الله

٥١٠ - ٥٩٧هـ

- التفكر في عواقب الدنيا.
- سبب المصائب والبلايا.
- أقبح الذنوب.
- فهم معنى الوجود.
- تعجيل التوبة قبل الندم.
- حكمة.

جمع وترتيب

وليد مراد



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، **أما بعد:**

فقد ألّف الشيخ الإمام الواعظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى المتوفى سنة ٥٩٧هـ، كتاب عظيم الفائدة، كتب فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخواطر والأفكار التي تمر بباله فيسارع إلى كتابتها قبل أن تذهب بالنسيان. وقد حوت هذه الخواطر على خلاصة علم وتجارب هذا العالم الجليل الذي عاش سبع وثمانون سنة، ومع أنه كتبها في القرن السادس الهجري إلا أن لها ارتباط وثيق بواقعنا الحالي، ولا غنى عنها أبدًا لكل مسلم ومسلمة في وقتنا هذا؛ لما تحتويه من توجيهات أساسية ترتكز على أربعة أركان:

الركن الأول: معرفة الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والركن الثاني: معرفة آفات النفس وشرورها وتهذيب أخلاقها.

والركن الثالث: معرفة وساوس الشيطان ومكائده وخصاله.

أما الركن الرابع: معرفة الدنيا وفتنتها وغرورها وسبل الاحتراز منها.

وهذا بالتحديد ما نحتاجه في هذا الجو الفاسد الذي نعيش به في هذا القرن الذي طغت عليه ظاهرة ضعف الإيمان والابتعاد عن اللغة العربية والقراءة لكثرة الاشتغال بالدنيا، من هنا أتت فكرة مقتطفات من كتاب صيد الخاطر وجمعها في كتاب قليل الحجم؛ ليسهل قراءتها وحفظ فوائدها والعمل بمضمونها بإذن الله وتوفيقه، جزى الله بالخير والإحسان علماءنا الأبرار، لا سيما الإمام ابن الجوزي تغمده الله برحمته، والحمد لله ربِّ العالمين.

وليد مراد

* * *

ابن الجوزي

هو عبد الرحمٰن بن علي، الشيخ الحافظ الواعظ المشهور بابن الجوزي، أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحوًا من مائتي مجلدة، وتفرد بفن الوعظ، هذا وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنظر في النجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو، ولد سنة عشر وخمسمائة، ومات أبوه وعمره ثلاث سنين، فلما ترعرع جاءت به عمته إلى مسجد محمد بن ناصر الحافظ، فلزم الشيخ وقرأ عليه وسمع عليه الحديث وتفقه بابن الزاغواني، وحفظ الوعظ ووعظ وهو ابن عشرين سنة أو دونها، وأخذ اللغة العربية عن أبي منصور الجواليقي.

وكان وهو صبي ديِّنًا مجموعًا على نفسه لا يخالط أحدًا ولا يأكل ما فيه شبهة، وكان لا يلعب مع الصبيان، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك

والأمراء والعلماء والفقراء، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة الآف، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون، وله من النظم والنثر شيء كثير جدًّا، وكانت وفاته ليلة الجمعة الثاني عشر من رمضان من سنة ٥٩٧هـ، وله من العمر سبع وثمانون سنة، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيرًا جدًّا، ودفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الإمام أحمد، وكان يومًا مشهودًا، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

يا كثير العفو يا من
كثُرت ذنبي لديه

جاءك المذنبُ يرجو
الصفح عن جُرم يديه

أنا ضيفٌ وجزاء
الضيف إحسانٌ إليه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن الجوزي، رحمة الله تعالى عليه:

الحمد لله حمدًا يبلغ رضاه، وصلى الله على أشرف من اجتباه، وعلى من صاحبه ووالاه، وسلم تسليمًا لا يدرك منتهاه: لما كانت الخواطر تجول في أشياء تعرض لها، ثم تعرض عنها فتذهب! كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**قيدوا العلم بالكتابة**» وكم قد خطر لي شيء، فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه. ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر، سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حساب فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيدًا ـ لصيد الخاطر ـ والله ولي النفع إنه قريب مجيب.

* * *

١ ـ التفكر في عواقب الدنيا

من تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر، ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه! وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

أعجب العجائب سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خبِّئ لك. تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلًا عن قرب الألم، لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك قبل الممات مضجعك، وقد شغلك نيل لذاتك، عن ذكر خراب ذاتك:

كأنَّكَ لَم تَسمعْ بأخبارِ مَنْ مضى
ولم تَرَ في الباقين ما يصنع الدهرُ

فيا من كل لحظه إلى هذا يسري، وفعله فعل من لا يفهم ولا يدري:

كيف تنام العين وهي قريرة؟
ولم تدر في أي المحلين تنزلُ

٢ ـ سبب المصائب والبلايا العظيمة

خطرت لي فكرة فيما يجري على كثير من العالم من المصائب الشديدة، والبلايا العظيمة، فقلت: سبحان الله! إن الله أكرم الأكرمين، والكرم يوجب المسامحة فما وجه هذه العقوبة؟ فتفكرت، فرأيت كثيرًا من الناس في وجودهم كالعدم، لا يتصفحون أدلة الوحدانية، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى ونواهيه، بل يجرون على عاداتهم كالبهائم، فإن وافق الشرع مرادهم، وإلا فمعولهم على أغراضهم، وبعد حصول الدينار، لا يبالون أمن حلال كان أم من حرام، وإن سهلت عليهم الصلاة فعلوها، وإن لم تسهل تركوها. وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة، فإذا وقعت عقوبة لتُمحِّص ذنبًا، صاح مستغيثهم: تُرى هذا بأي ذنب؟ وينسى ما قد كان، مما تتزلزل الأرض لبعضه، وقد يهان الشيخ في كبره، حتى ترحمه القلوب، ولا يَدري أن ذلك لإهماله حق الله تعالى في شبابه، فمتى رأيت معاقبًا، فاعلم أنه لذنوب.

٣ ـ من سرَّه أن تدوم له العافية

من أحب تصفية الأحوال، فليجتهد في تصفية الأعمال. قال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن].

وقال أبو سليمان الداراني: من صفَّى صُفِّي له، ومن كدر كدِّر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله.

وكان شيخ يدور في المجالس، ويقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله ﷿. وكان الفضيل بن عياض يقول: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق دابتي وجاريتي.

وإنما يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه، ومتى رأيت تكديرًا في حال، فاذكر نعمة ما شُكِرَت، أو زلة قد فعلت، واحذر من نفار النعم، ومفاجأة النقم، ولا تغتر بسعة بساط الحلم، فربما عجل انقباضه. وقد قال الله ﷿: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

٤ ـ معرفة شرف الزمان وقدر الوقت

ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل.

فإذا علم الإنسان بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته، فإن كان له

شيء من الدنيا، وقف وقفًا، وغرس غرسًا، وأجرى نهرًا، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده، فيكون الأجر له، أو أن يصنّف كتابًا من العلم، فإن تصنيف العالم ولده المخلَّد، وأن يكون عاملًا بالخير، عالمًا فيه، فينقل من فعله ما يقتدي الغير به، فذلك الذي لم يمت.

٥ ـ أقبح الذنوب

من تأمل أفعال الباري سبحانه، رآها على قانون العدل، وشاهد الجزاء مراصد للمجازاة، ولو بعد حين. فلا ينبغي أن يغتر مُسامح، فالجزاء قد يتأخر.

ومن أقبح الذنوب التي قد أعد لها الجزاء العظيم الإصرار على الذنب، ثم يصانع صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد، وعنده أن المصانعة تنفع، وأعظم الخلق اغترارًا من أتى ما يكرهه الله، وطلب منه ما يحبه هو، كما رُوي في الحديث: «**والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».

ومما ينبغي للعاقل أن يترصده وقوع الجزاء، فإن ابن سيرين قال: عيرت رجلًا فقلت: يا مفلس، فأفلست بعد أربعين سنة.

وبالضد من هذا كل من عمل خيرًا أو صحح نية،

فلينتظر جزاءها الحسن، وإن امتدت المدة. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله عبادة يجد حلاوتها في قلبه**» فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يحابي.

٦ ـ عقاب المعصية وثواب الحسنة

كل شيء خلقه الله تعالى في الدنيا فهو أنموذج في الآخرة، وكل شيء يجري فيها أنموذج ما يجري في الآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء، وهذا لأن الله تعالى شوَّق بنعيم إلى نعيم، وخوَّف بعذاب من عذاب، فأما ما يجري في الدنيا فكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل وكل مذنب ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة، وقد قال الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وربما كان العقاب العاجل معنويًّا

كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني، فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي!

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد، حتى قال وهب بن الورد، وقد سئل: أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ فقال: ولا من همّ، فرب شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سره، وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس.

وعلى ضده يجد من يتقي الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلًا، كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ يقول الله تعالى: «**النظرة إلى المرأة سهم مسموم من سهام الشيطان، من تركه ابتغاء مرضاتي آتيته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه**» ولو أن شخصًا ترك معصية لأجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك، وكذلك إذا فعل طاعة.

٧ ـ أعجب الأدلة على وجود الحق سبحانه

نظرت في الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يخفي ما لا يرضاه الله عز وجل، فيظهره الله سبحانه ولو بعد حين، وينطق

الألسنة به وإن لم يشاهده الناس، وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق؛ فيكون جوابًا لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازي على الزلل، ولا ينفع مِنْ قَدَرِهِ وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يخفي الإنسان الطاعة فتظهر عليه ويتحدث الناس بها وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنبًا ولا يذكرونه إلا بالمحاسن؛ ليعلم أن هناك ربًّا لا يضيع عمل عامل، وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه، أو تأباه. وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون الحق تعالى، إلا انعكس مقصوده، وعاد حامده ذامًّا.

٨ـ تدبير الصانع

لما تلمحت تدبير الصانع في سَوْق رزقي، بتسخير السحاب وإنزال المطر برفق، والبذر تحت الأرض كالموتى، قد عفن ينتظر نفخة من صور الحياة، فإذا به خضرًا، وانقطع عنه الماء، مد يد الطلب يستعطي، وأمال رأسه خاضعًا، ولبس حلل التغير، فهو محتاج إلى ما أنا محتاج إليه من حرارة الشمس، وبرودة الماء، ولطف النسيم، وتربية الأرض، فسبحان من أراني فيما يربيني به،

كيف تربيتي في الأصل، فيا أيتها النفس التي اطلعت على بعض حكمه، قبيح بك والله الإقبال على غيره، ثم العجب كيف تُقبلين على فقير مثلك، ينادي لسان حاله بي مثل ما بك، فارجعي إلى الأصل الأول، واطلبي من المسبب، ويا طوبى لك إن عرفتيه، فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة.

٩ ـ الحذر من خوادع التأويلات وفواسد الفتاوى

كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلي الخلوة، فكنت أجد قلبًا طيبًا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، ولي نوع أنس وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه لخوف الشبهات، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح، فعدم ما كنت أجد. وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب إلى أن عدم النور كله.

وكثر ضججي من مرضي، وعجزت عن طب نفسي، فلجأت إلى الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني

لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني، ورد قلبي على بُعد نفوره عني، فأفقت من مرض غفلتي! وقلت في مناجاة خلوتي: سيدي كيف أقدر على شكرك؟ وبأي لسان أنطق بمدحك؟ إذ لم تؤاخذني على غفلتي، ونبهتني من رقدتي، وأصلحت حالي على كره من طبعي، فما أربحني فيما سلب مني إذ كانت ثمرته اللجأُ إليك، وما أوفر جمعي إذ ثمرته إقبالي على الخلوة بك، وما أغناني إذ أفقرتني إليك، وما آنسني إذ أوحشتني بالتجارب لخلقك، آه على زمان ضاع في غير خدمتك! أسفًا لوقت مضى في غير طاعتك.

قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلمني نومي طول الليل، وإذا انسلخ عني النهار لا يوجعني ضياع ذلك اليوم، وما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض. فالآن قد هبّت نسائم العافية، فأحسست بالألم فاستدللت على الصحة، فيا عظيم الإنعام تمم لي العافية، لقد فتقت ما يصعب رتقه، فوا أسفاه على بضاعة ضاعت.

يا من يقرأ تحذيري من التخليط، فإني وإن كنت خنت نفسي بالفعل نصيح لإخواني بالقول، إحذروا إخواني من الترخص فيما لا يؤمن فساده، فإن الشيطان يزين المباح في أول مرتبة ثم يجر إلى الجناح.

وهذا أعجب مصايد إبليس يصيد بها العلماء، يتأولون لعواقب المصالح، فيستعجلون ضرر المفاسد، مثاله: أن يقول للعالم: ادخل على هذا الظالم فاشفع في مظلوم، فيستعجل الداخل رؤية المنكرات، ويتزلزل دينه وربما وقع في شرك صار به أظلم من ذلك الظالم، فمن لم يتق بدينه فليحذر من المصائد، فإنها خفية، وأسلم ما للجبان العزلة، خصوصًا في زمان قد مات فيه المعروف[1]، وعاش المنكر.

فالحذر الحذر من خوادع التأويلات، وفواسد الفتاوى، الصبر الصبر على ما توجبه العزلة، فإنه إن انفردت بمولاك فتح لك باب معرفته، فهان كل صعب، وطاب كل مرّ، وتيسر كل عُسر، وحصلت على المطلوب. والله الموفق بفضله.

١٠ ـ أفضل التعبد هو العلم

ليس في الوجود أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل، فإذا عدم وقع الضلال.

وإن من خفي مكائد الشيطان أن يزين في نفس الإنسان التعبد، ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم.

---

(١) هذا في القرن السادس الهجري؛ فكيف بهذا الزمان؟

وهذا من خفي حيل إبليس لسببين:

أحدهما: أنه أرادهم يمشون في الظُلمة، **والثاني**: أن تصفّح العلم كل يوم يزيد في العالم، ويقوي إيمانه ومعرفته، ويريه عيب كثير من مسالكه إذا تصفح منهاج الرسول ﷺ، والصحابة فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه، وخفي على المخدوع أن العلم عمل وأي عمل، فاحذر من هذه الخديعة الخفية، فإن العلم هو الأصل الأعظم، والنور الأكبر. وربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم والصلاة، والحج والغزو، وكم من مُعرِض عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبده، ويضيع كثيرًا من الفرض بالنفل، ويشتغل بما يزعمه الأفضل عن الواجب، ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لاهتدى، فتأمل ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى.

١١ ـ مجلس الوعظ

فأنفع ما للعامي مجلس الوعظ، يرده عن ذنب ويحركه إلى توبة.

١٢ ـ الإقبال بالفهم على كتاب الله

الله ﷻ قد صنّف هذه المخلوقات فأحسن التركيب وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب، فأي لب أوغل في النظر مدح على قدر فهمه فأحبه المصنّف، وكذلك أنزل القرآن يحتوي على عجائب الحكم، فمن فتَّشه بيد الفهم وحادثه في خلوة الفكر استجلب رضا المتكلم به وحظي الزلفى لديه.

١٣ ـ تعظيم النفس مانعًا من الاستفادة

أفضل الأشياء التزايد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنّه كافيًا استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من الاستفادة، والمذاكرة تبين له أخطاؤه، وربما كان مُعظَّمًا في النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة لأهديت إليه مساويه فعاد عنها. غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية للنفس حبس من إدراك الصواب، نعوذ بالله من ذلك.

١٤ ـ عدم نسيان من أنعم ووفق

تأملت قوله ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:

١٧]، فرأيت فيه معنًا عجيبًا، وهو أنهم لما وهبت لهم العقول فتدبروا بها عيب الأصنام، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء. كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب لهم الذي به باينوا البهائم.

فينبغي أن يوجه الشكر إلى من بَعَث له في ظلم الطبع القبس. ومثل هذا رؤية المتقي تقواه حتى أنه يرى أنه أفضل من كثير من الخلق، وربما احتقر أهل المعاصي وتشمّخ عليهم، ولا أقول لك خالط الفساق احتقارًا لنفسك، بل اغضب عليهم في الباطن وأعرض عنهم في الظاهر، وتلمح جريان الأقدار عليهم في الباطن فأكثرهم لا يعرف لمن عصى، بل يريد موافقة هواه، وعزيز عليه أن يعصي، وفيهم من غلب عليه تلمح العفو والحلم، فاحتقر ما يأتي لقوة يقينه بالعفو، وهذه كلها ليست باعتذار لهم، ولكن تلمحه أنت يا صاحب التقوى؛ لأنك تعرف من تعصي، وتعلم ما تأتي، فربما دارت الدائرة فصرت المنقطع، ووصل المقطوع؛ فالعجب ممن ينسى من أنعم ووفق.

١٥ ـ الزمان لا يثبت على حال

اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فتارة

فقر وتارة غنى، وتارة عز وتارة ذل، وتارة يفرح الموالى وتارة يشمت الأعادي. فالسيد من لازم أصلًا واحدًا على كل حال وهو تقوى الله ﷻ، فإنه إن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، وإن ابتلي جمَّلته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير.

والتقوى أصل السلامة وحارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة. ولازم التقوى في كل حال فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم.

١٦ ـ حكمة تأخير إجابه الدعاء

تأملت حالة عجيبة وهو أن المؤمن تنزل به النازلة، فيدعو ويبالغ فلا يرى أثرًا للإجابة، فإذا قارب اليأس نظر حينئذ، إلى قلبه، فإن كان راضيًا بالأقدار غير قنوط من فضل الله ﷻ، فالغالب تعجيل الإجابة حينئذ؛ لأن هناك يصلح الإيمان ويندحر الشيطان، وهناك تبين مقادير الرجال، وقد أشير إلى هذا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فإياك أن تستطيل مدة الإجابة، وكن ناظرًا إلى أنه المالك وإلى أنه الحكيم في التدبير والعالم بالمصالح، وإلى أنه يريد اختبارك ليبلو أسرارك، وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك، وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك إلى غير ذلك، وإلى أنه يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس. وكل واحدة من هذه الأشياء تقوي الظن في فضله وتوجب الشكر له، إذ أهّلك بالبلاء للالتفات إلى سؤاله.

١٧ ـ عواقب المعاصي

من تأمل عواقب المعاصي رآها قبيحة، ولقد تفكرت في أقوام أعرفهم يقرون الزنا وغيره، وكأنهم قد ألبسوا ظلمة، فالقلوب تنفر عنهم، فإن اتسع لهم شيء فأكثره من مال الغير، وإن ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القدر، هذا وقد شغلوا بهذه الأوساخ عن ذكر الآخرة، ثم عكست فتفكرت في أقوام صابروا الهوى، وتركوا ما لا يحل.

فمنهم من قد أينعت له ثمرات الدنيا من قوت مستلذ، ومهاد مستطاب، وعيش لذيذ، وجاه عريض، فإن ضاق بهم أمر وسعه الصبر، وطيَّبه الرضا، ففهمت بالحال معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف].

١٨ ـ ملازمة باب المولى على كل حال وملازمة التقوى

ينبغي للعاقل أن يلازم باب مولاه على كل حال، وأن يتعلق بذيل فضله إن عصى وإن أطاع، وليكن له أنس في خلوته به، فإن وقعت وحشة فليجتهد في رفع الموحش، كما قال الشاعر:

أمستوحش أنت مما جنيت
فأحسن إذا شئت واستأنس

فإن رأى نفسه مائلًا إلى الدنيا طلبها منه، أو إلى الآخرة سأله التوفيق للعمل لها، فإن خاف ضرر ما يرومه من الدنيا سأل الله إصلاح قلبه، وطب مرضه، فإنه إذا صلح لم يطلب ما يؤذيه، ومن كان هكذا كان في العيش الرغد، غير أن من ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى، فإنه لا يصلح الأنس إلا بها، وقد كان أرباب التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن اللجأ والسؤال.

١٩ ـ لا تغترَّ بزخرف

رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت إلى ما عثر به، فينظر إليه طبعًا موضوعًا في الخلق، إما ليحذر

منه إن جاز عليه مرة أخرى، أو لينظر مع احترازه وفهمه كيف فاته التحرز من مثل هذا؛ فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلاني والذنب الفلاني؟

كيف غرَّك زخرف تعلم بعقلك باطنه، وترى بعين فكرك مآله؟ كيف آثرت فانيًا على باق؟ كيف اخترت لذّة رقدة على انتباه معاملة. آه لك لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يقلها ظهر، وتنكيس رأس أمسى بعيد الرفع، ودموع حزن على قبح فعل ما لمددها انقطاع، وأقبح الكل أن يقال لك بماذا؟ ومن أجل ماذا؟ وهذا على ماذا؟

٢٠ ـ لا تنزل شدة إلا بالانحراف عن التقوى

تأملت قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

قال المفسرون: هداي، رسول الله ﷺ وكتابي، فوجدته على الحقيقة أن كل من اتبع القرآن والسُّنَّة وعمل بما فيهما، فقد سلم من الضلال بلا شك، وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك، إذا مات على ذلك. وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلًا، ويبين هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق]. فإن رأيته في شدة فله من

اليقين بالجزاء ما يصير الصاب[1] عنده عسلًا، والأغلب طيب العيش في كل حال، والغالب أنه لا ينزل به شدة إلا إذا انحرف عن جادة التقوى. فأما الملازم لطريق التقوى فلا آفة تطرقه، ولا بلية تنزل به، هذا هو الأغلب، فإنه ندر من تطرقه البلايا مع التقوى، فذاك في الأغلب لتقدم ذنب يُجازى عليه، فإن قدّرنا عدم الذنب، فذاك لإدخال ذهب صبره كير البلاء حتى يخرج تبرًا أحمر.

٢١ ـ مراقبة الحق ﷻ

ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط حاكم بالعدل ـ وإن كان حلمه يسع الذنوب ـ إلا أنه إذا شاء عفا فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ باليسير، فالحذر الحذر.

ولقد رأيت أقوامًا من المترفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي باطنة وظاهرة، فبُغتوا من حيث لم يحتسبوا، فقلعت أصولهم، ونقض ما بنوا من قواعد أحكموها لذراريهم، وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب

---

(١) عصارة شجر مرّ.

الحق ﷻ، وظنوا أنّ ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجري من شر، فمالت سفينة ظنونهم، فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم، ورأيت أقوامًا من المنتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق ﷻ إليهم في الخلوات، فمحى محاسن ذكرهم في الجلوات، فكانوا موجودين كالمعدومين، لا حلاوة لرؤيتهم، ولا قلب يحن إلى لقائهم، فالله الله في مراقبة الحق ﷻ، فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مُرصد للمخطئ ولو بعد حين. وربما ظن العفو وهو إمهال، وللذنوب عواقب سيئة، فالله الله في الخلوات، البواطن البواطن، النيات النيات، فإن عليكم من الله عينًا ناظرة، وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم استدرج.

وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين في محوها، وما من شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا.

٢٢ ـ التهاون في الصغائر

كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها صغيرة، وهي تقدح في الأصول، كاستعارة طلاب العلم جزءًا لا يردونه، وقصد الدخول على من يأكل ليأكل معه، وتناول طعام لم يُدع الإنسان إليه، والتسامح بعرض العدو التذاذًا بذلك، واستصغارًا لمثل هذا الذنب، وإطلاق البصر في

المحرّم هوانًا بتلك الخطيئة، ونحو ذلك مما يظن صغيرًا وهو عظيم، وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من منزلة المتميزين بين الناس، ومن مقام رفعة القدر عند الحق ﷻ، وربما قيل له بلسان الحال: يا من اؤتمن على أمر يسير فخان.

قال بعض السلف: تسامحت بلقمة فتناولتها فأنا اليوم أربعين سنة إلى خلف؛ فالله الله اسمعوا ممن قد جرّب، كونوا على مراقبة، وانظروا في العواقب، واعرفوا عظمة الناهي، واحذروا من نفخة تحتقر، وشررة تستصغر فربما أحرقت بلدًا.

وهذا الذي أشرت إليه يسير يدل على كثير، وأنموذج يعرّف باقي المحقرات من الذنوب، والعمل والمراقبة يعرفانك ما أخللت بذكره، ويعلمانك إن تلمحت بعين البصيرة أثر شؤم فعله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٢٣ ـ النفس تسأل الله حاجاتها وتنسى جناياتها

رأيت من نفسي عجبًا؛ تسأل الله ﷻ حاجاتها، وتنسى جناياتها، فقلت: يا نفس السوء أَوَ مثلك ينطق،

فإن نطق فينبغي أن يكون لسؤال العفو فحسب، فقالت: ممن أطلب مراداتي؟ قلت: ما أمنعك من طلب المراد، إنما أقول: حققي التوبة، وانطقي! فالله الله من جراءة على طلب الأغراض مع نسيان ما تقدم من الذنوب التي توجب تنكيس الرأس، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى والندم عليه جاءتك مراداتك، كما روي: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**».

وقد كان بشر الحافي يبسط يديه للسؤال ثم يسبلهما ويقول: مثلي لا يَسأل، ما أبقت الذنوب لي وجهًا، وهذا يختص ببشر لقوة معرفته. كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحًا، فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد. وتشاغل بالتوبة من الزلل. ثم العجب من سؤالاتك فإنك لا تكاد تسأل مهمًّا من الدنيا، بل فضول العيش، ولا تسأل صلاح القلب والدين، مثل ما تسأل صلاح الدنيا، فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف، وليكن حزنك على زلَّاتك شاغل لك عن مراداتك، فقد كان الحسن البصري شديد الخوف، فلما قيل له في ذلك. قال: وما يؤمنني أن يكون اطلع عليَّ بعض في بعض ذنوبي فقال: إذهب لا غفرت لك.

٢٤ ـ ما عرف الله إلا من خاف منه

أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان بالله، ما عرفه إلا من خاف منه، فأما المطمئن فليس من أهل المعرفة، وفي المتزهدين أهل تغفيل يكاد أحدهم يوقن على أنه ولي محبوب ومقبول، وربما احتقر غيره وظن أن محلته محفوظة به تغره ركيعات ينتصب فيها، أو عبادة ينصب بها.

وكأنه ما علم أنه بينا موسى مكالم نبئ يوشع، وبينا زكريا عليه السلام مجاب الدعوة نشر بالمنشار، وبينا يحيى عليه السلام يوصف بأنه سيد سلَّط عليه كافر احتز رأسه، وبينا بلعام معه الاسم الأعظم صار مثله كمثل الكلب، وبينا البدن معمورًا خرب وسط البلاء عليه، فالله الله من مساكنه مسكن، ومخالفة مقام وليكن المتيقظ على انزعاج محتقر للكثير من طاعته، خائفًا على نفسه من تقلباته، ونفوذ الأقدار فيه. واعلم أن تلمح هذه الأشياء التي أشرت إليها يضرب عنق العجب، ويُذهب كبر الكبر.

٢٥ ـ لا بد من لقاء البلاء

من عاش من الله عز وجل طيب العيش في زمن السلامة، خِفْتُ عليه في زمن البلاء، فهناك المحك. إن

الملك ﷻ بينا يبني نقض، وبينا يعطي سلب، فطيب العيش والرضا هناك يبين، فأما من تواصلت لديه النعم فإنه يكون طيب القلب لتواصلها، فإذا مسّته نفحة من البلاء، فهناك المحك.

قال الحسن البصري: كانوا يتساوون في وقت النعم فإذا نزل البلاء تباينوا؛ فالعاقل من أعد ذخرًا، وحصّل زادًا، وازداد من العدد للقاء حرب البلاء، ولا بد من لقاء البلاء، ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت، فإنها إن نزلت والعياذ بالله فلم تجد معرفة توجب الرضا أو الصبر، أخرجت إلى الكفر، ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير، وهو يقول في ليالي موته: ربي هو ذا يظلمني، فلم أزل منزعجًا مهتمًّا بتحصيل عدة ألقى بها ذلك القرن.

كيف وقد روي أن الشيطان يقول لأعوانه في تلك الساعة: عليكم بهذا، فإن فاتكم لم تقدروا عليه، وأي قلب يثبت عند نزع النفس، والعلم بمفارقه المحبوبات إلى ما يدري ما هو، وليس في ظاهره إلا القبر والبلاء؛ فنسأل الله ﷻ يقينًا يقينا شر ذلك اليوم، لعلنا نصبر للقضاء أو نرضى به، ونرغب إلى مالك الأمور في أن يهب لنا من فواضل نعمه على أحبابه، حتى يكون لقاؤه

أحب إلينا من بقائنا، وتفويضًا إلى تقديره أشهى لنا من اختيارنا، ونعوذ بالله من اعتقاد الكمال لتدبيرنا، حتى إذا انعكس علينا أمر عدنا إلى القدر بالتسخط، وهذا هو الجهل المحض، والخذلان الصريح أعاذنا الله منه.

٢٦ ـ صفة العارفين بالله

ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشًا من العارفين بالله ﷻ، فإن العارف به مستأنس به في خلوته، فإذا عمت نعمهُ علم من أهداها، وإن مرمر حلا مذاقه في فيه، لمعرفته بالمبتلي وإن سأل فتعوق مقصوده، صار مراده ما جرى به القدر، علمًا منه بالمصلحة بعد يقينه بالحكمة، وثقته بحسن التدبير.

وصفة العارف أن قلبه مراقب لمعروفه، قائم بين يديه، ناظر بعين اليقين إليه، فقد سرى من بركة معرفته إلى الجوارح ما هذّبها.

إذا تسلّط على العارف أذى أعرض نظره عن السبب، ولم ير سوى المسبب، فهو في أطيب عيش معه. إن سكت تفكر في إقامة حقه، وإن نطق تكلم بما يرضيه، لا يسكن قلبه إلى زوجة ولا إلى ولد، ولا يتشبث بذيل محبة أحد، وإنما يعاشر الخلق ببدنه، وروحه عند مالك

روحه. فهذا الذي لا همَّ عليه في الدنيا ولا غمَّ عنده وقت الرحيل عنها، ولا وحشة له في القبر، ولا خوف عليه يوم المحشر.

فأما من عدم المعرفة فإنه معثّر لا يزال يضجّ من البلاء لأنه لا يعرف المبتلي، ويستوحش لفقد غرضه لأنه لا يعرف المصلحة، ويستأنس بجنسه لأنه لا معرفة بينه وبين ربه، ويخاف من الرحيل لأنه لا زاد له ولا معرفة بالطريق.

٢٧ ـ عزّ التقوى وذل المعصية

بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى لا تبع عزها بذل المعاصي، وصابر عطش الهوى في هجير المشتهى وإن أمضَ وأرمض، فإذا بلغت النهاية من الصبر فاحتكم وقل: فهو مقام من لو أقسم على الله لأبره. بالله عليك تذوق حلاوة كف الكف عن المنهي، فإنها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف الآخرة، ومتى اشتد عطشك إلى ما تهوى فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الري الكامل، وقد عيل صبر الطبع في سنينه العجاف، فعجّل لي العام الذي فيه أغاث وأعصر.

يا من لا يصبر لحظة عما يشتهي. بالله عليك أتدري من الرجل؟ الرجل والله من إذا خلا بما يحب من المحرّم

وقدر عليه وتقلقل عطشًا إليه نظر إلى نظر الحق إليه فاستحيى من إجالة همّه فيما يكرهه. كأنك لا تترك لنا إلا ما لا تشتهي، أو ما لا تقدر عليه، هيهات والله لا نلت ولايتنا حتى تكون معاملتك خالصة لنا.

٢٨ ـ فهم معنى الوجود

رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا، إن طال الليل فبحديث لا ينفع، وإن طال النهار فالبنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبية الزاد والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته، فالله الله في مواسم العمر، والبدار البدار قبل الفوات.

٢٩ ـ ما عرف الله من أمن مكره

سبحان الملك العظيم الذي من عرفه خافه، ومن أمن مكره قط ما عرفه.

لقد تأملت أمرًا عظيمًا أنه ﷻ يمهل حتى كأنه يهمل فيُرى أيدي العصاة مطلقة كأنه لا مانع، فإذا زاد الانبساط أخذ أخذ جبار، وإنما كان ذلك الإمهال ليبلو صبر الصابر

وليملي في الإمهال للظالم، فيثبت هذا على صبره، ويجزي هذا بقبيح فعله ـ مع أن هناك من الحلم في طي ذلك ما لا نعلمه ـ فإذا أخَذَ أخْذ عقوبة رأيت على كل غلطة تبعة، وربما جمعت فضرب العاصي بالحجر الدافع، وربما خفي على الناس سبب عقوبته، فقيل: فلان من أهل الخير فما وجه ما جرى له؟ فيقول القدر: حدود لذنب خفية صار استيفاؤها ظاهرًا، فسبحان من ظهر حتى لا خفاء به، واستتر حتى كأنه لا يُعرف، وأمهل حتى طمع في مسامحته، وناقش حتى تحيرت العقول من مؤاخذته، لا حول ولا قوة إلا بالله.

٣٠ ـ من كان قلبه قاسيًا

ينبغي أن يقاوم المرض بضده، فمن كان قلبه قاسيًا شديد القسوة، وليس عنده من المراقبة ما يكفّه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين.

فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به، بل ينبغي له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك لينتفع بعيشه، وقد كان الرسول ﷺ يمزح ويسابق عائشة ويتلطف بنفسه، فمن سار سيرته عليه الصلاة والسلام فهم من مضمونها ما قلته من التلطف بالنفس.

٣١ ـ تعجيل التوبة قبل الندم

أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يحد، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو تُرك والتدارك ويصدق توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى؛ فالعاقل من مثّل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك، فإنه يكف كفّ الهوى ويبعث على الجد.

فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه كان كالأسير لها، كما روي عن حبيب العجمي أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته: إذا مت اليوم ففلان يغسلني، وفلان يحملني.

٣٢ ـ للبلايا نهايات معلومة الوقت

للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله ﷻ، فلا بد للمبتلي من الصبر إلى أن ينقضي أوان البلاء، فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل، فلا بد من الصبر إلى حين البطالة، فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع.

فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعًا ولا ينفع

إلا به؛ إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجل، بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم، ويقطع المواد التي كانت سببًا للبلاء، فإن غالب البلاء أن يكون عقوبة، فأما المستعجل فمزاحم للتدبير، وليس هذا مقام العبودية وإنما المقام الأعلى هو الرضا والصبر هو اللازم.

والتلاحي بكثرة الدعاء نعم المعتمد، والاعتراض حرام، والاستعجال مزاحمة للتدبير، فافهم هذه الأشياء فإنها تهون البلاء.

٣٣ ـ مدة البلاء تحتاج إلى زاد

ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر إما عن المحبوب، أو على المكروهات، وخصوصًا إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج، وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها، والزاد يتنوع من أجناس، فمنه تلمح مقدار البلاء وقد يمكن أن يكون أكثر، ومنه أنه في حال كون ما فوقها أعظم منها مثل أن يبتلى بفقد ولد وعنده أعز منه، ومن ذلك رجاء العوض في الدنيا، ومنه تلمح الأجر في الآخرة، ومنه التلذذ بتصور المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه والأجر من الحق عز وجل.

ومن ذلك فإن الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه إلى

غير ذلك من الأشياء التي يقدحها العقل والفكر، فليس في طريق الصبر نفقه سواها، فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل.

٣٤ ـ تأخير إجابة الدعاء

ينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا أن لا يختلج في قلبه أمر من تأخير الإجابة أو عدمها؛ لأن الذي إليه أن يدعو، والمدعو مالك حكيم، فإن لم يُجب فعل ما يشاء في ملكه، وإن أخَّر فعل بمقتضى حكمته، فالمعترض عليه في سره خارج عن صفة عبد، ثم ليعلم أن اختيار الله ﷻ له خير من اختياره لنفسه، فربما سأل سيلاً سال به. فإذا سلّم العبد تحكيمًا لحكمته وحكمه، وأيقن أن الكل ملكه طاب قلبه، قضيت حاجته أو لم تقض. وفي الحديث: «**ما من مسلم دعا الله تعالى إلا وأجابه، فإما أن يعجلها وإما أن يؤخرها وإما أن يدخرها له في الآخرة**»[1] فإذا رأى يوم القيامة أن ما أجيب فيه قد ذهب، وما لم يجب فيه قد بقي ثوابه، قال: ليتك لم تجب لي دعوة قط. فافهم هذه الأشياء، وسلم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال.

(١) حديث حسن صحيح.

٣٥ ـ في الناس من يطيع في صغار الأمور دون كبارها

رأيت كثيرًا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، وفي أشياء يطول عددها من حفظ فروع وتضييع أصول.

فبحثت في سبب ذلك فوجدته من شيئين:

أحدهما: العادة، والثاني: غلبة الهوى في تحصيل المطلوب، فإنه قد يغلب فلا يترك سمعًا ولا بصرًا.

وفي الناس من يطيع في صغار الأمور دون كبارها، وفيما كلفته عليه خفيفة أو معتادة، وفيما لا ينقص شيئًا من عاداته في مطعم وملبس.

ترى أقوامًا يأخذون بالربا ويقول أحدهم: كيف يراني عدوي بعين أني بعت داري، أو تغير ملبوسي ومركوبي! وترى أقوامًا يوسوسون في الطهارة ولا يتحاشون من غيبة، وأقوامًا يستعملون التأويلات الفاسدة في تحصيل أغراضهم مع علمهم أنها لا تجوز، حتى أني رأيت رجلًا من أهل الخير والتعبد أعطاه رجل مال ليبني به مسجدًا،

فأخذه لنفسه وأنفق عوض الصحيح قراضة، فلما احتضر قال لذلك الرجل: اجعلني في حل فإني فعلت كذا وكذا.

٣٦ ـ خشية الله في الخلوة

إن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة، كم من مؤمن بالله ﷻ يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهي حذرًا من عقابه، أو رجاء لثوابه، أو إجلالًا له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عودًا هنديًّا على مجمر فيفوح طيبه فيستنشقه الخلائق ولا يدرون أين هو.

وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يقوى محبته، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب، فيُرى عيون الخلق تعظم هذا الشخص وألسنتهم تمدحه ولا يعرفون لم؟ وقد تمتد هذه الأرابيح بعد الموت، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة ثم يُنسى، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم يخفى ذكره وقبره، ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبدًا، وعلى عكس هذا من هاب الخلق، ولم يحترم خلوته بالحق، فإنه على قدر مبارزته بالذنوب وعلى مقادير تلك الذنوب، يفوح منه ريح الكراهية فتمقته القلوب.

ورب خال بذنب كان سبب وقوعه في هوة، شقوة في عيش الدنيا والآخرة، وكأنه قيل له: ابق بما آثرت

فيبقى أبدًا في التخبيط، فانظروا إخواني إلى المعاصي اثَّرت وعثَّرت.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى فيُلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر.

٣٧ ـ جريان الأقدار

من عرف جريان الأقدار ثبت لها، وأجهل الناس بعد هذا من قاواها؛ لأن مراد المقدِّر الذل له.

فإذا قاويت القدر فنلت مرادك من ذلك لم يبق لك ذل ـ مثال هذا ـ أن يجوع الفقير فيصبر قدر الطاقة، فإذا عجز خرج إلى سؤال الخلق مستحيًا من الله كيف يسألهم، وإن كان له عذر بالحاجة التي ألجأته، غير أنه يرى أنه مغلوب الصبر فيبقى معتذرًا مستحيًا وذلك المراد منه، أو ليس بخروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة فلا يقدر على العود إليها حتى يدخل في خفارة المطعم بن عدي وهو كافر، فسبحانه من ناط[١] الأمور بالأسباب، ليحصل ذل العارف بالحاجة إلى التسبب.

---

(١) علّق.

٣٨ ـ في الابتلاء يُظهر الله جواهر خلقه

سبحان المتصرف بخلقه بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم، ويظهر جواهرهم في الابتلاء، هذا آدم تسجد له الملائكة ثم بعد قليل يخرج من الجنة.

وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يضرب حتى يغشى عليه، ثم بعد قليل ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه.

وهذا الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ يُلقى في النار ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة.

وهذ الذبيح إسماعيل يضّجع مستسلمًا للذبح ثم يسلم ويبقى المدح.

وهذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول.

وهذا الكليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يشتغل بالرعي ثم يرقى إلى التكليم.

وهذا نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقال له بالأمس اليتيم، ويقلب في عجائب يلاقيها من الأعداء تارة ومن مكابد الفقر أخرى، وهو أثبت من جبل حراء، ثم لمّا تم مراده من الفتح نزل به ضيق النقلة[١]، فقال: «**واكرباه**».

---

(١) لحظة الانتقال من الدنيا إلى دار الآخرة.

فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام لم يستهول نزول بلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء.

٣٩ ـ هو تعالى أعلم بما يصلحك

اللذات كلها بين حسي وعقلي، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح، وغاية اللذات العقلية العلم. فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية.

واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيرًا ليؤثرك على لذات العلم فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع، فهو أعلم بما يصلحك.

٤٠ ـ دوام العافية والسلامة بالتقوى

من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله ﷻ، فإنه ما من عبد أطلق نفسه في شيء ينافي التقوى وإن قلّ إلا وجد عقوبة عاجلة أو آجلة، ومن الاغترار أن تسيء فترى إحسانًا فتظن أنك قد سومحت، وتنسى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وربما قالت النفس إنه يغفر فتسامحت، ولا شك أنه يغفر ولكن لمن يشاء. وأنا أشرح لك حالًا فتأمله بفكرك تعرف معنى المغفرة، وذلك أن من

هفا هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ولا عزم على العودة بعد الفعل، ثم انتبه لما فعل فاستغفر الله كان فعله وإن دخله عمدًا في مقام خطأ، مثل ـ أن يعرض مستسحن فيغلبه الطبع فيطلق النظر ويتشاغل في حال نظره بالتذاذ الطبع عن تلمح معنى النهي، فيكون كالغائب أو كالسكران فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله، فقام الندم بغسل تلك الأوساخ التي كانت كأنها غلطة لم تقصد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

فأما المداوم على تلك النظرة المردد لها، المصر عليها، فكأنه في مقام متعمد للنهي مبارز بالخلاف فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره، ومن البعد أن لا يرى الجزاء على ذلك.

واعلم أنه من أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب، فإن العقوبة تتأخر، ومن أعظم العقوبة ألا يحس الإنسان بها، وأن تكون في سلب الدين وطمس القلب وسوء الاختيار للنفس، قال بعض المعتبرين:

أطلقت نظري فيما لا يحل لي ثم كنت أنتظر العقوبة فأُلجئت إلى سفر طويل لا نيّة لي فيه، فعانيت المشاق، ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندي، وذهاب أشياء كان

لها وقع عظيم عندي، ثم تلافيت أمري بالتوبة فصلح حالي. ثم عاد الهوى يحملني على إطلاق بصري مرة أخرى. فطمس قلبي وعدمت رقته، واستلب مني ما هو أكثر من فقد الأول.

إخواني احذروا لجة هذا البحر، ولا تغتروا بسكونه، وعليكم بالساحل ولازموا حصن التقوى فالعقوبة مرّة، واعلموا أن في ملازمة التقوى مرارات من فقد الأغراض والمشتهيات، غير أنها في ضرب المثل كالحمية تعقب صحة، والتخليط ربما جلب موت الفجأة، وبالله لو نمتم على المزابل مع الكلاب في طلب رضا المبتلي كان قليلًا في نيل رضاه، ولو بلغتم نهاية الأماني من أغراض الدنيا مع إعراضه عنكم كانت سلامتكم هلاكًا، وعافيتكم مرضًا، وصحتكم سقمًا والأمر بآخره. والعاقل من تلمح العواقب، وصابروا رحمكم الله تعالى هجير البلاء فما أسرع زواله. والله الموفق إذ لا حول ولا قوة إلا به، ولا قوة إلا بفضله.

٤١ ـ القرآن منبع العلوم وأكبر المعجزات

أول ما جاء به الرسول ﷺ إثبات الخالق بالنظر في صنعه فقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات] وما زال يستدل على وجوده بمخلوقاته، وعلى قدرته

بمصنوعاته، ثم أثبت نبوة نبيه بمعجزاته، وكان من أعظمها القرآن الذي جاء به فعجز الخلائق عن مثله، واكتفى بهذه الأدلة جماعة من الصحابة.

وعلم الله ﷻ ما سيكون من البدع فبالغ في إثبات الأدلة وملأ بها القرآن، ولما كان القرآن هو منبع العلوم، وأكبر المعجزات للرسول، أكد الأمر فيه فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].، وتولّى هو بنفسه عقاب المكذبين بالقرآن فقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، وهذا لأنه أصل هذه الشرائع.

٤٢ ـ التقوى سبب للمخرج من كل غم

ضاق بي أمر أوجب غمًّا لازمًا دائمًا، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقًا للخلاص، فعرضت لي هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق]؛ فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج، فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا في طاعة الله، وامتثال أمره، فإن ذلك سبب لفتح كل مرتج، ثم أعجبه من حيث لم يقدّره المتفكر المحتال المدبرّ، كما قال ﷻ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ

﴿حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، ثم ينبغي للمتقي أن يعلم أن الله ﷻ كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب، فقد قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

٤٣ ـ تدبير الحق ﷻ

من العجب إلحاحك في طلب أغراضك، وكلما زاد تعويقها زاد إلحاحك، وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين: إما لمصلحتك فرب معجل أذى، وإما لذنوبك، فإن صاحب الذنوب بعيد من الإجابة، فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصي، وانظر فيما تطلبه: هل هو لإصلاح دينك، أو لمجرد هواك، فإن كان للهوى المجرد، فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه، وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيمنع رفقًا به، أو كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره أو كان صلاح الدين بعدمه.

وفي الجملة تدبير الحق ﷻ لك خير من تدبيرك، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك، فأره الصبر الجميل ترى عن قرب ما يسر، ومتى نظَّفت طرق الإجابة من أدران الذنوب، وصبرت على ما يقضيه لك، فكل ما يجري أصلح لك، عطاء كان أو منعًا.

٤٤ ـ الاغترار بالشباب والصحة

يجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدًّا، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان، ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، وإنما تقدم المعاصي وتؤخر التوبة لطول الأمل، وإن لم تستطع قصر الأمل فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تمسي حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقًا فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى من ليلك، وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس: ثم صور لنفسك قصر العمر، وكثرة الأشغال، وقوة الندم على التفريط عند الموت.

ولا تخل نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحادثها بها، فإن النفس كالفرس المتشيطن إن أهملت لجامه لم تأمن أن يرمي بك، وقد والله دنستك أهواؤك، وضيعت عمرك. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤٥ ـ الحذر من الذنوب

الحذر الحذر من المعاصي، فإن عواقبها سيئة، وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبدًا مع تعثير

أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا.
فالله الله في تجديد التوبة عساها تكف كف الجزاء، والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر، وقد أصلح لك أحوال العلانية، ولا تغتر بستره أيها العاصي فربما يجذب عن عورتك، ولا بحلمه فربما بغت العقاب، وعليك بالقلق واللجأ إليه، والتضرع، فإن نفع شيء فذلك.

٤٦ ـ إجلال الله وتعظيمه

إخواني: اسمعوا نصيحة من قد جرّب وخبر، إنه بقدر إجلالكم لله ﷻ يجلكم، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحرمتكم.

٤٧ ـ المذنب

أيها المذنب إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرنّ الضجيج، ولا تقل قد تبت وندمت، فهل لا زال عني من الجزاء ما أكره، فلعل توبتك ما تحققت. وإن للمجازاة زمانًا يمتد امتداد المرض الطويل، فلا تنجح فيه الحيل حتى ينقضي أوانه. مكث أيوب في بلائه ثمانية عشر سنة،

وأقام يعقوب يبكي على يوسف ثمانين سنة، وللبلايا أوقات ثم تنصرم، ورب عقوبة امتدت إلى زمان الموت.

فاللازم لك أن تلازم محارب الإنابة، وتجلس جلسة المستجدي، وتجعل طعامك القلق، وشرابك البكاء، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيرًا، وإن متَّ في سجن سجنك فربما ناب حزن الدنيا عن حزن الآخرة، وفي ذلك ربح عظيم.

٤٨ ـ مغبة المعاصي

الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبه ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة. فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من عين العين.

٤٩ ـ كيف يتصرف العارف بالله

واعجبًا من عارف بالله ﷻ يخالفه ولو في تلف نفسه، هل العيش إلا معه؟ هل الدنيا والآخرة إلا له؟ أف لمترخص في فعل ما يكره لنيل ما يحب، تالله لقد فاته أضعاف ما حصل، أقبل على ما أقوله يا ذا الذوق هل وقع تعثر في عيش، وتخبيط في حال، إلا حال مخالفته:

ولا انـثـنـى عـزمـي عـن بـابـكـم
إلا تــــعـــثّـــرت بــــأذيــــالــــي

أما سمعت تلك الحكاية عن بعض السلف أنه قال: رأيت على سور بيروت شابًا يذكر الله تعالى. فقلت له: ألك حاجة؟ فقال: إذا وقعت لي حاجة سألته إياها بقلبي فقضاها. يا أرباب المعاملة قفوا على باب المراقبة وقوف الحراس وادفعوا ما لا يصلح أن يلج فيفسد، واهجروا أغراضكم لتحصيل محبوب الحبيب فإن أغراضكم تحصل. على أنني أقول: أف لمن ترك بقصد الجزاء، أهذا شرط العبودية، كلا! إنما ينبغي لي إذا كنت مملوكًا أن أفعل ليرضى لا لأُعطى، اقبل نصحي يا مخدوعًا بغرضه إن ضعفت عن حمل بلواته فاستغث به، وإن آلمك كرب اختياره فإنك بين يديه، ولا تيأس من روحه وإن قوي خناق البلاء. نسأل الله ﷻ ما لا يحصل مطلوبنا إلا به وهو توفيقه، إنه سميع مجيب.

٥٠ ـ ليس الطاعة في مجرد الصلاة والصيام

الحق ﷻ أقرب إلى عبده من حبل الوريد، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه، فأمر بقصد نيته ورفع اليدين إليه والسؤال له.

فقلوب الجهّال تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفّوا الأكف عن الخطايا. ومتى تحققت المراقبة حصل الأنس، وإنما يقع الأنس بتحقيق الطاعة؛ لأن المخالفة توجب الوحشة، فيا للذة عيش المستأنسين، ويا خسارة المستوحشين. وليس الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها في مجرد الصلاة والصيام، إنما الطاعة الموافقة بامتثال الأمر واجتناب النهي، هذا هو الأصل، فكم من متعبّد بعيد؛ لأنه مضيّع الأصل، وهادم للقواعد بمخالفة الأمر وارتكاب النهي.

٥١ ـ الطريق الأعظم في الحذر

آه كم معصية مضت في ساعتها كأنها لم تكن ثم بقيت آثارها، وأقلها ما لا يبرح من المرارة والندم، والطريق الأعظم في الحذر أن يتعرض لسبب فتنة ولا يقاويه، فمن فهم هذا وبالغ في الاحتراز كان إلى السلامة أقرب.

٥٢ ـ من أصلح سريرته فاح عبير فضله

كثيرًا من العلماء يأنفون من قول: لا أدري، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال: جهلوا الجواب، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا، وهذا نهاية الخذلان.

وقد روي عن مالك بن أنس أن رجلاً سأله عن مسألة فقال: لا أدري، فقال سافرت البلدان إليك، فقال: ارجع إلى بلدك، وقل: سألت مالكًا فقال: لا أدري.

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله كيف استراح من الكلفة، وسلم عند الله ﷻ. ثم إن كان المقصود الجاه فقلوبهم بيد غيرهم. والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشّع، والقلوب تتهافت على محبته فتدبرت السبب فوجدته السريرة. كما روي عن أنس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة. فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر.

٥٣ ـ العالم يستغني بالكسب عن المسألة

حضرنا بعض أعزبة أرباب الأموال، فرأيت العلماء أذل الناس عندهم؛ فالعلماء يتواضعون لهم ويذلون لموضع طمعهم فيهم، وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونهُ من احتياجهم إليهم، فرأيت هذا عيبًا في الفريقين.

وإنما أعود باللوم على العلماء وأقول: ينبغي لكم

أن تصونوا أنفسكم التي شرفت بالعلم عن الذل للأنذال، وإن كنتم في غنى عنهم كان الذل لهم والطلب منهم حرامًا عليكم، وإن كنتم في كفاف فلِمَ لَمْ تؤثروا التنزّه عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة. فالأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى، ويبالغ في الكسب، وإن ضاع بذلك عليه كثير من زمان طلب العلم، فإنه يصون عِرضه.

وقد كان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلَّف مالًا، وخلَّف سفيان الثوري مالًا وقال: لولاك لتمندلوا بي[1]، وحثِّي طالبي العلم على ذلك ما بيّنته من أن النفس لا تثبت على التعفف ولا تصبر على دوام التزهد، وكم قد رأينا من شخص قويت عزيمته على طلب الآخرة فأخرج ما في يده، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح وجه، فالأولى ادخار المال والاستغناء عن الناس، ويخرج الطمع من القلب.

وإنما سلك طريق الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده بذل الدين والوجه، فطلب الراحة ونسي أنها في المعنى عناء، كما فعل جماعة من جهال المتصوفة في إخراج ما في أيديهم وادعاء التوكل، وما علموا أن

---

(١) الاستهانة والإذلال.

الكسب لا ينافي التوكل، وإنما طلبوا طريق الراحة، وجعلوا التعرض للناس كسبًا، وهذه طريقة مركبة من شيئين: أحدهما: قلة الأنفة على العرض، والثاني: قلة العلم.

٥٤ ـ الخوف والرجاء

تأملت وقوع المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم. فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر. ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته ما انبسطت كف بمخالفته، فإنه ينبغي والله أن يحذر من أقل فعلة تعميم الخلق بالموت، حتى إلقاء الحيوان البهيم للذبح، وتعذيب الأطفال بالمرض، وفقر العالم، وغنى الجاهل، فليعرض المقدم على الذنوب على نفسه الحذر من هذه صفته. فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران]، وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسباب الرجاء؛ فالخائف آخذ بالحزم، والراجي متعلق بحبل طمع.

٥٥ ـ ما يليق بالعلماء في طلب المال

رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء يستذلونهم بشيء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم، فإن كان لأحدهم ختمة قال فلان ما حضر، وإن مرض قال فلان ما تردد، وقد رضي العلماء بالذل في ذلك لموضع الضرورة، فرأيت أن هذا جهل من العلماء بما يوجب عليهم من صيانة العلم.

ودواؤه من جهتين:

أحدهما: القناعة باليسير، كما قيل: من رضي بالخل والبقل لم يستعبده أحد.

والثاني: صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدنيا، فإنه يكون سببًا لإعزاز العلم، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب العلم مع احتمال هذا الذل.

ومن لم يأنف من مثل هذه الأشياء لم يحظ من العلم إلا بصورته دون معناه.

٥٦ ـ كثير من النّاس دليلهم العادات

مدار الأمر كله على العقل، فإنه إذا تم العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل، وثمرة العقل فهم

الخطاب، وتلمح المقصود من الأمر، ومن فهم المقصود وعمل على الدليل كان كالباني على أساس وثيق، وإني رأيت كثيرًا من الناس لا يعملون على دليل، بل كيف اتفق، بل وربما كان دليلهم العادات، وهذا أقبح شيء يكون.

ثم رأيت خلقًا كثيرًا لا يتبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى، فإنهم يقلدون الآباء، ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا؟ وكذلك يثبتون الإلٰه ولا يعرفون ما يجوز عليه مما لا يجوز، فينسبون إليه الولد، ويمنعون جواز تغييره ما شرع، وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا في إثبات الصانع وما يجوز عليه، ولا في الدليل على صحة النبوات، فتقع أعمالهم ضائعة كالباني على رمل.

ومن هذا القبيل في المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون وينصبون أبدانهم في العلم بأحاديث باطلة، ولا يسألون عنها من يعلم.

ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذمّ الدنيا فتزهّدوا، وما فهموا المقصود، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها وأن النفس تجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق، ومنعوها حظوظها، وما أُمرنا بتعذيب أنفسنا في الصورة، بل بخلاف ما تدعو إليه مما نهى الله عنه.

ألا ترى إلى سفيان الثوري فإنه كان شديد المعرفة والخوف وكان يأكل اللذيذ ويقول: إن الدابه إذا لم يحسن إليها لم تعمل.

٥٧ ـ اتباع الدليل

الواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما يجتني من مكروه، مثاله: أنه قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق ﷻ وملكه وتدبيره، فإذا رأى الإنسان عالمًا محرومًا، وجاهلًا مرزوقًا، أوجب عليه الدليل المثبت ـ حكمة الخالق ـ التسليم إليه، ونسبة العجز عن معرفة الحكمة إلى نفسه، فإن أقوامًا لم يفعلوا ذلك جهلًا منهم، أفتراهم بماذا حكموا بفساد هذا التدبير؟ أليس بمقتضى عقولهم أو ما عقولهم من جملة مواهبه ﷻ؟ فكيف يحكم على حكمته وتدبيره ببعض مخلوقاته التي هي بالإضافة إليه أنقص من كل شيء؟

ولو فكر المدبر لبانت له وجوه: أقلها جهله بمن يدّعي معرفته وقلة تعظيمه، وذلك يوجب عليه أشد مما كان فيه من ضيق العيش، ولكنه ميراث إبليس حيث اعتقد سوء التدبير في تفضيل آدم عليه، فالعجب من تلميذ يتمعلم

على أستاذه، ومن مملوك يتيه على سيده. فليتق الله العاقل، وليعمل بمقتضى العقل فيما يؤمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم، وليعلم أن الابتلاء هو في الصبر على فوات المطلوبات، وليلزم الدليل وإن جنى مكروهًا، فإن تابع الدليل لا يبالي ما جنى، وإنما يبين الاختبار بفقد الغرض.

٥٨ ـ مخالفة الهوى

قرأت سورة يوسف عليه السلام، فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيئة الأمر فإذا هي مخالفة للهوى المكروه. فقلت: واعجبًا لو وافق هواه من كان يكون! ولما قد خالفه، لقد صار أمرًا عظيمًا يضرب الأمثال بصبره، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة فيا له عزًا وفخرًا.

وبالعكس منه حالة آدم في موافقته هواه، لقد عادت نقيصة في حقه أبدًا لولا التدارك فتاب عليه، فتلمحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى.

فالعاقل من ميّز بين الأمرين، فإن من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى؛ رأى كل الأرباح في الصبر، وكل الخسران في موافقة النفس، وكفى بهذا موعظة في مخالفة

الهوى لأولي النهى[1]، والله الموفق.

٥٩ ـ صلاح القلب بالرقائق والنظر في سيرة الصالحين

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين. فأما مجرد العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترق القلوب بذكر رقايق[2] الأحاديث، وأخبار السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يطالب به الخصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء، وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه، لا لاقتباس علمه، وذلك لأن ثمرة علمه هديه وسمته.

فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سبب لرقة قلبك، وقد

---

(١) النهى: العقول.

(٢) الرقائق: المواعظ والحكايات التي تؤثر في القلب وتحدث فيه رقة.

جمعت لكل واحد من مشاهير الأخيار كتابًا فيه أخباره وآدابه، فجمعت كتابًا في أخبار الحسن، وكتابًا في أخبار سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، وأحمد بن حنبل، ومعروف، وغيرهم من العلماء والزهاد[1].

٦٠ ـ النفس تنظر إلى لذات أرباب الدنيا

رأيت النفس تنظر إلى لذات أرباب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات.

وبيان هذا أنك إذا رأيت صاحب أمارة وسلطة فتأملت نعمته وجدتها مشوبة بالظلم، ثم هو خائف منزعج في كل أمورِهِ، حذر من عدو أن يسمه، قلق ممن هو فوقه أن يعزله، ومن نظيره أن يكيده. ثم إن صاحب المال خائف على ماله، مذموم إن أسرف وإن قتّر، ولده يرصد موته، ثم في ضمنه من محن الدنيا والآخرة ما لا يوصف فعليك بالقناعة مهما أمكن، ففيها سلامة الدنيا والدين. وقد قيل لبعض الزهاد ـ وعنده خبز يابس ـ: كيف تشتهي هذا؟ فقال: أتركه حتى أشتهيه.

(١) لعله كتاب صفة الصفوة.

٦١ ـ السعيد من سأل ربه العافية

والسعيد من ذلَّ لله وسأل العافية، فإنه لا يوهب العافية على الإطلاق فلا بد من بلاء، فلا يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على أحواله فيقرب الصبر على يسير البلاء، وفي الجملة ينبغي للإنسان أن يعلم أنه لا سبيل إلى محبوباته، وفي الحقيقة ما الصبر إلا على الأقدار، وقلَّ أن تجري إلى على خلاف مراد النفس! فالعاقل من دارى نفسه في الصبر بوعد الأجر، وتسهيل الأمر، ليذهب زمان البلاء سالمًا من شكوى، ثم يستغيث بالله تعالى سائلًا العافية، فأما المتجلّد[١] فما عرف الله قط. نعوذ بالله من الجهل به، ونسأله عرفانه، إنه كريم مجيب.

٦٢ ـ السلامة بالاقتداء بصاحب الرسالة

الجادة السليمة والطريق القويمة، الاقتداء بصاحب الشرع، والبدار إلى الاستنان به، فهو الكامل الذي لا نقص فيه.

فإن خلقًا كثيرًا انحرفوا إلى جادة الزهد، وحملوا

---

(١) المتجلد: الذي يثبت القوة لنفسه.

أنفسهم فوق الجهد، فأفاقوا في أواخر العمر، والبدن قد نهك، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره.

وإن أقوامًا انحرفوا إلى صورة العلم فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر قدم وقد فاتهم العمل به. فطريق المصطفى العلم والعمل، والتلطف بالبدن، فهذه هي الطريق الوسطى.

فإن مثل العالم كرجل يعرف الطريق، والعابد جاهل بها، فيمشي العابد من الفجر إلى العصر، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان، فإن قال قائل بيّن لي هذا؛ قلت: صورة التعبد خدمة لله تعالى، وذل له، وربما لم يطّلع العابد على معنى تلك الصورة؛ لأنه ربما ظن أنه أهل لوجود الكرامة على يده، وأنه مستحق تقبيل يده، أو أنه خير من كثير من الناس، وذلك كله لقلة العلم، وأعني بالعلم فهم أصول العلم، لا كثرة الرواية ومطالعة مسائل الخلاف، فإذا طالع العالم الأصولي، سبق هذا العابد بحسن خلق، ومداراة للناس، وتواضعه في نفسه، وإرشاده الخلق إلى الله تعالى، فيعثر على هذا العابد، وهو في ليل جهله بالحال راقد.

ومن تأمل حالة الرسول ﷺ، رأى كاملًا من الخلق يعطي كل ذي حق حقه، فتارة يمزح، وتارة يضحك،

ويداعب الأطفال، ويسمع الشعر، ويتكلم بالمعاريض، ويحسن معاشرة النساء، ويأكل ما قدر عليه وفتح له، وإن كان لذيذًا كالعسل ويستعذب له الماء، ويفرش له في الظل، ولم ينكر ذلك.

وهل فسد الناس إلا بالانحراف عن الشريعة!، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال لعبد الله بن عمرو: «**صم يومًا وأفطر يومًا**»، فقال: أريد أفضل من ذلك، فقال: «**لا أفضل**»، وفيهم من دفن كتب العلم وقعد يصلي ويصوم، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح؛ لأن النفس تغفل وتحتاج إلى التذكير في كل وقت، ونعم المذكر كتب العلم، وإنما دخل إبليس على كل قوم منهم من حيث قدر، وكان مقصوده بدفن الكتب إطفاء المصباح، ليسير العابد في الظلمة.

وعلى الحقيقة الزهاد في مقام الخفافيش، وقد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير من جماعة، واتباع جنازة، وعيادة مريض، إلا أنها حالة الجبناء، فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلِّمون، وهي مقامات الأنبياء عليهم السلام.

على أنه لو فهم معنى التعبد لم يقتصر به على الصلاة والصوم، فرب ماشٍ في حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة.

ولقد شاهدت رجلًا بجامع المنصور وهو يمشي في الجامع مشيًا كثيرًا دائمًا، فسألت: ما السبب في هذا المشي؟ فقيل لي: حتى لا ينام.

وهذه كلها حماقات أوجبها قلة العلم؛ لأنه إذا لم تأخذ النفس حظها من النوم اختلط العقل، وفات المراد من التعبد لبعد الفهم.

فمن أراد الاقتداء فعليه برسول الله ﷺ وأصحابه، ففي ذلك الشفاء والمطلوب.

٦٣ ـ الانعكاف على الكتاب والسُّنَّة

تأملت الدخل الذي دخل في ديننا في العلم والعمل فرأيته من طريقين:

فأما أصل الدخل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة، وهو أن خلقًا من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ من الانعكاف على الكتاب والسُّنَّة، فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد.

وأما أصل الدخل في باب العمل فمن الرهبانية، فإن خلقًا من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التقشف ولم ينظروا في سِيرَ نبيّنا ﷺ وأصحابه، وسمعوا ذم الدنيا وما

فهموا المقصود، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهم للمقصود، فحدثت منهم بدع قبيحة.

وبالعلم يعلم فساد الطريقين ويهتدى إلى الصواب. نسأل الله ﷻ أن لا يحرمنا إياه فإنه النور في الظلم، والأنيس في الوحدة، والوزير عند الحادثة.

٦٤ ـ شرف أوقات العمر

أعوذ بالله من صحبة البَطَّالين. لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني، ويتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوّق إليه واستوحش من الوحدة، وخصوصًا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام؛ بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع باللقاء جهدي، فإذا غلبت قصّرت في الكلام لأتعجل الفراق.

نسأل الله ﷻ أن يعرفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتِنامه.

ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن الكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس، وكم تمرّ به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرخص إلى غير ذلك. فعلمت أن الله تعالى لم يُطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفَّقه وألهمه اغتنام ذلك.

٦٥ ـ كيف يفيد من عمره الإنسان

رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين وأشافه بتصنيفي خلقًا لا تحصى ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.

فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد، فإنه ليس كل من صنَّف صنف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار

يطلع الله ﷻ عليها من عباده ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فرق أو يرتب ما شُتت، أو يشرح ما أهمل، هذا هو التصنيف المفيد.

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس، فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم.

فأما إذا قلَّت الآلات عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب، أخَّر التصانيف إلى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل، ولتكن همته في تنظيف نفسه وتهذيب خلاله، والمبالغة في استدراك زلّاته.

وقد قال سفيان الثوري: من بلغ سن رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفنًا. وقد بلغ جماعة من العلماء سبعًا وسبعين سنة، منهم أحمد بن حنبل، فإن بلغها فليعلم أنه على شفير القبر، فإن تمت له الثمانون فليجعل همته كلها مصروفة إلى تنظيف خلاله، وتهيئة زاده، وليجعل الاستغفار حليفه، والذكر أليفه، وليدقق في محاسبة النفس، وليبالغ في إبقاء أثره قبل رحيله، مثل بث علمه،

وإنفاق كتبه، وشيء من ماله. وبعد فمن تولاه الله ﷻ علَّمه، ومن أراد ألهمه. نسأل الله ﷻ أن ينعم علينا بأن يتولانا ولا يتولى عنا إنه قريب مجيب.

٦٦ ـ عادات الناس غلبت العمل بالشرع

رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع، فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة لا لنهي الشرع! ونرى خلقًا يحافظون على صلاة الرغائب ويتوانون عن الفرائض. وكثيرًا من المتصوفين لا يستوحشون من ظلم الناس، ثم يتصدقون على الفقراء، وربما توانوا عن إخراج الزكاة، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها، ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى، ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام، ويصعب عليه فراقه للعادة، وفيهم من يحلف بالطلاق ويحنث ويرى الفراق صعبًا، فربما تأول وربما تكاسل اتكالًا على عفو الله تعالى، ووعد من النفس بالتوبة، ومنهم من يرى أن استعمال الشرع وربما كان سببًا في تضييق معاشه، وقد ألف التفسح فلا يسهل عليه فراق ما قد ألف، والعادات في الجملة هي المهلكة.

ولقد حضر عندي رجل شيخ ابن ثمانين سنة، فاشتريت منه دكانًا وعقدت معه العقد، فلما افترقنا غدر

بعد أيام، فكم قد رأيت هذا الشيخ يصلي ويحافظ على الصلاة، ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانباً، وكم قد رأيت الحكام يتعبدون ويطلبون العلم، غير أنهم لما خافوا على رياستهم أن تزول تركوا جانب الدين.

فيخل لي من الأمر أن العادات غلبت على الناس، وأن الشرع أعرض عنه وإن وقعت موافقة للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرت، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة، فنسأله ﷻ التوفيق للانقياد لشرعه ومخالفة أهوائنا.

٦٧ ـ عزلة العالم

ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزًّا ولا شرفًا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله ﷻ وعند الخلق؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم.

ولا تلتفت يا هذا إلى ما ترى من ذل العلماء على أبواب السلاطين، فإن العزلة أصون للعالم والعلم، وما يخسره العلماء في ذلك أضعاف ما يربحونه، وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة. فإن أردت اللذة

والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك، وكن معتزلًا عن أهلك يطب لك عيشك، واجعل للقاء الأهل وقتًا، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك، فكانت المعاشرة بذلك أجود. وليكن لك بيت في بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك، واحترس من لقاء الخلق وخصوصًا العوام، واجتهد في كسب يعفك عن الطمع، فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا، وقد قيل لابن المبارك: ما لك لا تجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين، وأشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه. ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة، فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته، وإن رزق فهمًا يرتقي إلى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات. نسأل الله ﷻ همة عالية تسمو إلى الكمال، وتوفيقًا لصالح الأعمال، فالسالكون طريق الحق أفراد.

٦٨ ـ أحوال الناس

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم؛ فرأيت أكثر الخلق تبين خسارهم حينئذ؛ فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من فرّط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات، حينئذ فكلهم نادم

في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات، فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس، ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر، لقد كنت أخاف على نفسي من العجب، غير أنه ﷻ صانني وعلمني وأطلعني من أسرار العلم على معرفته، وإيثار الخلوة به، ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيرًا مني، وتارة يوقظني لقيام الليل ولذة مناجاته، وتارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني، ولولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب وتأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل، وإما إلى اليأس عند البطالة، لكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه، وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه؛ لأني رأيته رباني منذ كنت طفلًا فركز في طبعي حب العلم، وما زال يوقعني على المهم فالمهم، ويحملني إلى من يحملني

على الأصوب، حتى قوَّم أمري ووهب لي قوي رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي، ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل، ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام.

٦٩ ـ سبب صلاح الأخيار وفساد الأشرار

تدبرت أحوال الأخيار والأشرار فرأيت سبب صلاح الأخيار النظر، وسبب فساد الأشرار إهمال النظر.

وذاك أن العاقل ينظر فيعلم أنه لا بد من صانع، وأن طاعته لازمة، ويتأمل معجزات رسول الله ﷺ فيسلم قياده إلى الشرع، ثم ينظر فيما يقرّبه إلى الله، وإذا رأى مشتهى تأمل عاقبته فعلم أن اللذة تفنى والعار والإثم يبقى، فيسهل عليه الترك، وإذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه ذكر ثواب الصبر وندم الغضبان على أفعاله في حال الغضب، ثم لا يزال يتأمل سرعة ممر العمر بتحصيل أفضل الفضائل فينال مناه.

وأما الغافل فلا يرى إلا الشيء الحاضر، فمنهم من لم يتأمل في معنى المصنوع وإثبات الصانع، فجحدوا وتركوا النظر وجحدوا الرسل وما جاؤوا به، وكذلك كل

شهوة تعرض لهم لا ينظرون في عاقبتها بل في عاجل لذتها. فتعجيل اللذة يفوّت الفضائل، ويحصل الرذايل، وسببه عدم النظر في العواقب وهذا شغل العقل، نسأل الله ﷻ يقظة ترينا العواقب، وتكشف لنا الفضائل والمعائب، إنه قادر على ذلك.

٧٠ ـ بلوغ الأمل

خلقت لي همة عالية تطلب الغايات، بلغت السن وما بلغت ما أملت، فأخذت أسأل تطويل العمر، وتقوية البدن، وبلوغ الآمال، فأنكرت عليَّ العادات وقالت: ما جرت عادة بما تطلب، فقلت: إنما أطلب من قادر يخرق العادات، وقد قيل لرجل: لنا حويجة، فقال: اطلبوا لها رجيلًا، فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا فلم لا نطمع في فضل كريم قادر.

٧١ ـ العمل الخالص لله تعالى

ما أقل من يعمل لله تعالى خالصًا؛ لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم، وسفيان الثوري كان يقول: لا أعتد بما ظهر من علمي.

فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق ومحو الجاه من

قلوبهم، وإخلاص القصد وشر الحال هو الذي رفع من رفع.

فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافيًا في وقت ونعليه في يديه، واليوم صارت الرياسات أكثر من كل حاجة، وما تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان الحق، فحينئذٍ تطلب الرياسة على أهل الدنيا، فصارت أحوال الخلق نواميس لإقامة الجاه لا غير، فوالله سقطتم من عين الحق، فأسقطكم من عين الخلق.

فالتفتوا إخواني إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق، ولتكن عمدتكم الاستقامة مع المالك، فبذلك صعد السلف وسعدوا، وإياكم وما الناس عليه اليوم.

٧٢ ـ طاعة الخالق وإن سخط المخلوق

العاقل من يحفظ جانب الله ﷻ وإن غضب الخلق، وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقلّب الله قلب الذي قصد أن يرضيه فيسخطه عليه. فينبغي أن يحسن القصد لطاعة الخالق وإن سخط المخلوق، فإنه يعود صاغرًا ولا يسخط الخالق.

٧٣ ـ حفظ السِّر

رأيت أكثر النّاس لا يتمالكون من إفشاء سرهم، فإذا ظهر عاتبوا من أخبروا به، فوا عجبًا كيف ضاقوا بحبسه ذرعًا ثم لاموا من أفشاه، وفي الحديث: «**استعينوا على قضاء أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**»[١] ولعمري إن النفس يصعب عليها كتم الشيء، وترى بإفشائه راحة، خصوصًا إذا كان مرضًا أو همًّا أو عشقًا، وإنما الرجل الحازم الذي لا يتعداه سرّه ولا يفشيه إلى أحد.

ومن العجز إفشاء السر إلى الولد والزوجة، والمال من جملة السر.

وستر المصائب من جملة كتمان السر، لأن إظهارها يسرّ الشامت ويؤلم المُحب.

ورب مفش سره إلى زوجة أو صديق فيصير بذلك رهينًا عنده؛ فالحازم من عامل الناس بالظاهر، فلا يضيق سرّه في صدره، فإن فارقته امرأة أو صديق أو خادم لم يقدر أحد أن يقول فيه ما يكره.

---

(١) صحيح الجامع، رقم (٩٤٣).

٧٤ـ العزلة للعالم والزاهد

ما أعرف نفعًا كالعزلة عن الخلق خصوصًا للعالم والزاهد، فإنك لا تكاد ترى إلا شامتًا بنكبة أو حسودًا على نعمة، ومن يأخذ عليك غلطاتك، فيا للعزلة ما ألذها، سلمت من كدر غيبة، وآفات تصنع، وتضييع الوقت ثم خلا فيها القلب بالفكر، فدبر أمر دنياه وآخرته، فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المعي بالأخلاط فيذيبها.

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد، فإنهما يعلمان مقصود العزلة، وأما العالم فعلمه مؤنسه، وكتبه محدّثه، والنظر في سير السلف نديمه، والتفكر في حوادث الزمان السابق فرجته، فإن ترقى بعلمه إلى ربا المعرفة الكاملة للخالق سبحانه، وتشبث بأذيال محبته تضاعفت لذاته، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها، فخلا بحبيبه وعمل معه بمقتضى علمه.

وكذلك الزاهد تعبّده أنيسه، ومعبوده جليسه. إنما اعتزلا ـ العالم والزاهد ـ ما يؤذي، فهما في الوحدة بين جماعة، فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق، وسلم الخلق من شرورهما، بل هما قدوة للمتعبدين وعلم للسالكين، ينتفع بكلامهما السامع، وتجري موعظتهما المدامع.

فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة وإن كرهها ليثمر له الصبر العسل.

وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالم، خصوصًا لأرباب المال والسلاطين فما يحصل له شيء من الدنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله، ثم أين الأنفة من الذل للفساق، فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا يذوق طعم العلم ولا يدري ما المراد به، وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنع والنفاق، فيفوته الحظّان، لا الدنيا ونعيمها تحصل له ولا الآخرة. فنسأل الله ﷻ خلوة حلوة، وعزلة عن الشر يستصلحنا فيها لمناجاته، ويلهم كل منا طلب نجاته.. إنه قريب مجيب.

٧٥ـ الاستعداد للقاء الموت

ما أبله من لا يعلم متى يأتي الموت وهو لا يستعد للقائه! وأشد النّاس بلهًا وتغفيلًا من قد عبر الستين وقارب السبعين، فإن ما بينهما هو معترك المنايا، ومن نازل المعترك استعد وهو غافل عن الاستعداد.

قال الشباب لعلنا في شيبنا
نوع الذنوب فما يقول الأشيب

فالعاقل من فهم مقادير الزمان. فإنه فيما قيل: قبل

البلوغ صبي ليس على عمره عيار إلا أن يرزق فطنة، فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى وتعلم العلم. فإذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه، وقضى مناسك الأجل، ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن.

فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جل همته التزود للآخرة، ويأخذ في الاستعداد للرحيل. وإن كان الخطاب بهذا لابن عشرين، إلا أن رجاء التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير، فإذا بلغ الستين فقد أعذر الله إليه في الأجل، فليقبل بكليته إلى جمع زاده، وكلما علت سنّه فينبغي أن يزيد اجتهاده، فإذا دخل في عشر الثمانين فليس إلا الوداع. نسأل الله ﷻ يقظة تامة تصرف عنّا رقاد الغفلات، وعملًا صالحًا نأمن معه من الندم يوم الانتقال. والله الموفق.

٧٦ ـ غفلة طلّاب الدنيا عن اللذة فيها

لقد غفل طلّاب الدنيا عن اللذة فيها، واللذة فيها شرف العلم وزهرة العفّة وأنفة الحمية، وعز القناعة، وحلاوة الإفضال على الخلق.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بُنيت الفتنة على

ثلاث: النساء وهن فخ إبليس المنصوب، الشراب وهو سيفه المرهف، والدينار والدرهم وهما سهماه المسمومان. فمن مال إلى النساء لم يصفو له عيش، ومن أحب الشراب لم يتمتّع بعقله، ومن أحب الدينار والدرهم كان عبدًا لهما ما عاش.

٧٧ ـ الجد والتعب من أجل ما ينفع

تأملت عجبًا، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة. ونحو هذا تحصيل المال، فإنه يحتاج إلى المخاطرات والأسفار والتعب الكثير، وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود، فإنه يفتقر إلى جهاد النفس في بذل المحبوب، وربما آل إلى الفقر، وكذلك الشجاعة، فإنها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس. قال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يُفقرُ والإقدام قَتّالُ

ومن هذا الفن تحصيل الثواب في الآخرة، فإنه يزيد على قوة الاجتهاد والتعبد، أو على قدر المبذول من المال، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس

من الجزع، وكذلك الزهد يحتاج إلى صبر عن الهوى، والعفاف لا يكون إلا بكف كف الشره، ولولا ما عانى يوسف عليه السلام ما قيل له: أيها الصديق.

وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد حال أهل الكسل والشره والشهوات، فلئن التذّوا بعاجل الراحة لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة.

فالمُوفق من تلمح قصر الموسم المعمول فيه، وامتداد الجزاء الذي لا آخر له حتى اللحظة، وزاحم كل فضيلة، فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها: أو ليس في الحديث يقال للرجل: «**اقرأ وارق فمنزلك عند آخر آية تقرؤها**». فلو أن الفكر عمل في هذا حق العمل حفظ القرآن عاجلًا.

٧٨ ـ المؤمن الكامل الإيمان

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة، ويتجنب المحظورات فحسب، إنما المؤمن الكامل الإيمان لا يختلج في قلبه اعتراض، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه، وقوي تسليمه، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثرًا، وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته، فإن اختلج في قلبه اعتراض خرج من

مقام العبودية إلى مقام المناظرة، كما جرى لإبليس. والإيمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء. وههنا يظهر قدر قوة الإيمان لا في ركعات، قال الحسن البصري:

استوى النّاس في العافية فإذا نزل البلاء تباينوا.

٧٩ ـ الفناء للأجساد لا للأرواح

لا زلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الأهل والأولاد، ولا أتخايل إلا بلى الأبدان في القبور فأحزن لذلك. فمرت بي أحاديث قد كانت تمر بي ولا أتفكر فيها، منها قول النبي ﷺ: «**إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنّة، حتى يبعثه الله إلى جسده يوم يبعثه**»[١] فرأيت أن الرحيل إلى الراحة، وأن هذا البدن ليش بشيء؛ لأنه مركب تفكك وفسد، وسيبنى جديدًا يوم البعث. وإنما يبقى الأسف لتعلق الخلق بالصور، فلا يرى الإنسان إلّا جسدًا مستحسنًا قد نُقض فيحزن لنقضه.

والجسد ليس هو الآدمي، إنما هو مركبه، فالأرواح لا ينالها البلى، والأبدان ليست بشيء، واعتبر هذا بما إذا قلعت ضرسك فرميته بحفرة، فهل عندك خبر مما يلقى في

---

(١) حديث صحيح.

مدة حياتك، فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس، لا تدري النفس ما يلقى، ولا ينبغي أن تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاه، واذكر تنعّم الأرواح، وقرب التجديد، وعجل اللقاء والفكر في تحقيق هذا يهوّن الحزن ويسهل الأمر.

٨٠ـ عاقبة الصبر والرضا

لا ينبغي للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت، وإن كان الطبع لا يملك. إلا أنه ينبغي له التصبر مهما أمكن، إما لطلب الأجر بما يعاني، أو لبيان أثر الرضى بالقضاء، وما هي لحظات ثم تنقضي.

وليتفكر المعاني من المرض في الساعات التي كان يقلق فيها أين هي في زمان العافية! ذهب البلاء وحصل الثواب، كما تذهب حلاوة اللذات المحرّمة ويبقى الوزر.

وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب، فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس، وقد هان ما يلقى، كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرّة.

فالسعيد من وُفِّق لاغتنام العافية، ثم يختار تحصيل الأفضل فالأفضل في زمن الاغتنام، وليعلم أن زيادة المنازل في الجنّةِ على قدر التزيد من الفضائل ههنا.

والعمر قصير، والفضائل كثيرة فليبالغ في البدار. فيا طول راحة التعبِ، ويا فرحة المغموم، ويا سرور المحزون. ومتى تخايل دوام اللذة في الجنّة من غير منغّص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة.

٨١ ـ الهلاك بالرياء

ما يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأن المشغول القلب بالحق يفر من الخلق، ومتى تمكن فراغ القلب من معرفة الحق امتلأ بالخلق، فصار يعمل لهم ومن أجلهم ويهلك بالرياء ولا يعلم.

أعوذ بالله من رؤية النفس، ورؤية الخلق، فإن من رأى نفسه تكبّر، والمتكبّر أحمق؛ لأنه ما من شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه، ومن راءى الخلق عبدَهم. وهو لا يعلم.

٨٢ ـ أقبح المعاصي

كل المعاصي قبيحة، وبعضها أقبح من بعض، فإن الزنى من أقبح الذنوب، فإنه يفسد الفراش ويغيّر الأنساب، وهو بالجارة أقبح. فقد روي في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «قلت: يا رسول الله أي ذنب أعظم؟ قال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**. قلت: ثم أي؟

قال: **أن تقتل ولدك من أجل أن لا يطعم معك**. قلت: ثم أي، قال: **أن تزاني حليلة جارك**».

وإنما كان هذا؛ لأنه يضم إلى معصية الله ﷻ انتهاك حق الجار.

ومن أقبح الذنوب أن يزني الشيخ، ففي الحديث: «**إن الله يبغض الشيخ الزاني**»[1]؛ لأن شهوة الطبع قد ماتت، وليس فيها قوة تغلب، فهو يحركها ويبالغ، فكانت معصيته عنادًا.

ومن المعاصي التي تشبه المعاندة لبس الرجل الحرير والذهب، خصوصًا خاتم الذهب الذي يتحلى به الشيخ، وأنه من أبرد الأفعال وأقبح الخطايا. ومن هذا الفن الرياء والتخاشع وإظهار التزهد للخلق، فإنه كالعبادة لهم مع إهمال جانب الحق ﷻ.

وكذلك المعاملة بالربا الصريح، خصوصًا من الغني الكثير المال.

ومن أقبح الأشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب من ذنب، ولا يعتذر من زلّة، ولا يقضي دينًا، ولا يوصي بإخراج حق عليه.

---

(١) أخرجه مسلم.

ومن قبائح الذنوب أن يتوب السارق والظالم ولا يرد المظالم، والمفرّط في الزكاة أو في الصلاة ولا يقضي.

وهذه المستقبحات فضلًا عن القبائح تشبه العناد للآمر، فيستحق صاحبها اللعن ودوام العقوبة.

نسأل الله ﷻ إيمانًا يحجز بيننا وبين مخالفته، وتوفيقًا لما يرضيه فإنما نحن به وله.

٨٣ ـ الكبر والإعجاب بالنفس

اعتبرت على أكثر العلماء والزهاد أنهم يبطنون الكبر ومنهم من يقول: ادفنوني إلى جانب مسجدي ظنًّا منه أنه يصير بعد موته مزورًا كمعروف الكرخي، وهذه خلة مهلكة. وقلَّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه.

والعجب كل العجب ممن يرى نفسه، أتراه بماذا رآها: إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء، وإن كان بالتعبد فقد سبقه العُباد، أو بالمال فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية.

ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو في حال غيره على شك. فالذي يحذر منه الإعجاب بالنفس، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة. والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه.

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ، فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك، أحب إليَّ من أن أرى نفسي أهلًا لذلك.

٨٤ ـ الحذر من الإساءة

ليس في الدنيا أبله ممن يسيئ إلى شخص ويعلم أنه قد بلغ إلى قلبه بالأذى ثم يصطلحان في الظاهر، فيعلم أن ذلك الأثر محي بالصلح، وخصوصًا الملوك.

ومن هذا الجنس الأصدقاء المتماثلون، فإنك متى آذيت شخصًا وبلغ إلى قلبه أذاك فلا تثق بمودته، فإن أذاك نصب عينيه، ولا تخالط إلا من أنعمت عليه، فهو لم يرَ منك إلا خيرًا فيكون في نفسه، ويلحق بهذا أن أقول: لا ينبغي أن تعادي أحدًا ولا تتكلم في حقه، فالعاقل يصور في نفسه كل ممكن ويستر ما في قلبه من البغض والود، ويداري مع الغيظ والحقد. هذه مشاور العقل إن قبلت.

٨٥ ـ الغضبان حاله حال السكران

متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرًا، ولا أن تؤاخذه به، فإن حاله حال السكران، لا يدري ما يجري،

بل اصبر لفورته، ولا تعول عليها، فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر.

ومتى أخذت في نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنونًا، أو كمفيق عاتب مغمى عليه، فالذنب لك، بل انظر بعين الرحمة، وتلمح تصريف القدر له، وتفرج في لعب الطبع به، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى، وعرف لك فضل الصبر.

وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به، وهذه الحالة ينبغي أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد، والزوجة عند غضب الزوج، فتتركه يشتفي بما يقول، ولا تعول على ذلك، فسيعود نادمًا معتذرًا، ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة، وجازى في الإفاقة على ما فعل في حقه وقت السكر.

وكثر الناس على غير هذا الطريق، متى رأوا غضبان قابلوه بما يقول، ويعمل على مقتضى الحكمة هذا، بل الحكمة ما ذكرته، وما يعقلها إلا العالمون.

٨٦ ـ تلمح العواقب

كل من لا يتلمح العواقب ويستعد لما يجوز وقوعه فليس بكامل العقل، واعتبر هذا في جميع الأحوال، مثل

أن يغتر بشبابه ويدوم على المعاصي ويسوّف بالتوبة، فربما أخذ بغتة ولم يبلغ بعض ما أمل، فإن الزمان ينقضي بالتسويف ويفوت المقصود.

فالعاقل من أخذ بالجزم في تصوير ما يجوز وقوعه وعمل بمقتضى ذلك، فإن امتد الأجل لم يضره، وإن وقع المخوف كان محترزًا. ومما يتعلق بالدنيا أن يميل مع السلطان ويسيء إلى بعض حواشيه ثقة بقربه منه، ربما تغير ذلك السلطان فارتفع عدوه فانتقم منه.

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه ولم يعاد أحد، فإن كان بينهما ما يوجب المعاداة كتم ذلك، فإن صح له أن يثب على عدوه فينتقم منه انتقامًا يبيحه الشرع جاز، على أن العفو أصلح في باب العيش.

٨٧ ـ الصعود في الدنيا هبوط

بقدر صعود الإنسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة، وقد صرّح بهذا ابن عمر رضي الله عنهما فقال: والله لا ينال أحد من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله، فالسعيد من اقتنع بالبلغة[١]، فإن الزمان أشرف من أن يضيع في

---

(١) الضروري.

طلب الدنيا. اللَّهُمَّ إلا أن يكون متورعًا في كسبه معينًا لنفسه عن الطمع قاصدًا إعانة أهل الخير والصدقة على المحتاجين.

فأما الصعود الذي سببه مخالطة السلاطين فبعيد أن يسلم معه الدين، فإن وقع سلامته ظاهرًا فالعاقبة خطرة.

وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة، ولعمري إنهم طلبوا الراحة فأخطؤوا طريقها؛ لأن غموم القلب لا يوازيها لذة مال، ولا لذة مطعم، هذا في الدنيا قبل الآخرة.

ومن أشرف وأطيب عيشًا من منفرد في زاوية لا يخالط السلاطين، ولا يبالي أطاب مطعمه أم لم يطب، فإنه لا يخلو من كسرة وقعب ماء، وهو سليم من أن يقال له كلمة تؤذيه أو يُعيبه الشرع.

ومن تأمل حال أحمد بن حنبل في انقطاعه وحال ابن أبي داود ويحيى بن أكتم عرف الفرق في طيب العيش في الدنيا والسلامة في الآخرة.

وما أحسن ما قال ابن أدهم: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف، ولقد صدق ابن أدهم، فإن السلطان إن أكل شيئًا خاف أن يكون قد طرح فيه سم، وإن نام خاف أن

يغتال، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة، فإن خرج كان منزعجًا من أقرب الخلق إليه.

ثم إن الفقير يرى نفسه على الطريق في الليل فينام. ولذة الأمن قد حرمها الأمراء، فلذتهم ناقصة، وحسابهم زائد.

والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغًا من اللذات ما لم يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد، والعبّاد المحققين كمعروف فإن لذة العلم تزيد على كل لذة.

وما ضرهم إذا جاعوا أو ابتلوا بأذى، فإن ذلك يزيد في رفعتهم، وكذلك لذة الخلوة والتعبد.

ولما بليت أقوام بمخالطة الأمراء أثّر ذلك التكدير في أحوالهم كلها. فقال سفيان بن عينية: منذ أخذت من مال فلان الأمير منعت ما كان وُهب لي من فهم القرآن.

٨٨ ـ أكثر الناس يمشون مع العادة

من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة وأكابر العلماء علم أن أكثر الناس على غير الجادة، وإنما يمشون مع العادة، يتزاورون فيغتاب بعضهم بعضًا، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه، ويحسده إن كانت نعمة، ويشمت به إن كانت مصيبة،

ويتكبر عليه إن نصح له، ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا، ويأخذ عليه العثرات إن أمكن، هذا كله يجري بين المنتمين إلى الزهد لا الرعاع.

فالأولى بمن عرف الله سبحانه وعرف الشرع وسير السلف الصالحين الانقطاع عن الكل، فإن اضطر إلى لقاء منتسب إلى العلم والخير تلقاه وقد لبس درع الحذر، ولم يطل معه الكلام، ثم عجل الهرب منه إلى مخالطة الكتب التي تحوي تفسيرًا لنطاق الكمال.

٨٩ ـ الترقي إلى الكمال

الكمال عزيز، والكامل قليل الوجود، فأول أسباب الكمال يناسب أعضاء البدن، وحسن صورة الباطن، فصورة البدن تسمى خَلقًا، وصورة الباطن تسمى خُلُقًا. ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت، واستعمال الأدب، ودليل صورة الباطن حسن الطبائع، والأخلاق. فالطبائع: العفّه، والنزاهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشره. والأخلاق: الكرم، والإيثار، وستر العيوب، وابتداء المعروف، والحلم عن الجاهل. فمن رزق هذه الأشياء رقته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت خلة أوجبت النقص.

٩٠ ـ معرفة التكليف

ليس في الدنيا أبله ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الأغراض، فأين تكون البلوى إذا؟ لا والله، لا بد من انعكاس المرادات، ومن توقف أجوبة السؤالات، ومن تشفّي الأعداء في أوقات. فأما من يريد أن تدوم له السلامة والنصر على من يعاديه، والعافية من غير بلاء، فما عرف التكليف، ولا فهم التسليم.

أليس الرسول ﷺ يُنصر يوم بدر، ثم يجري عليه ما جرى يوم أُحد.

أليس يُصد عن البيت ثم قهرَ بعد ذلك، فلا بد من جيد ورديء، والجيد يوجب الشكر؛ والرديء يحرك إلى السؤال والدعاء، فإن امتنع الجواب أريد نفوذ البلاء والتسليم للقضاء. وها هنا يبين الإيمان، ويظهر في التسليم جواهر الرجال، فإن تحقق التسليم باطنًا وظاهرًا فذلك شأن الكامل، وإن وجد في الباطن انعصار من القضاء لا من المقضي فإن الطبع لا بد أن ينفر من المؤذي دل على ضعف المعرفة. فإن خرج الأمر إلى الاعتراض باللسان فتلك حال الجهال، نعوذ بالله منها.

٩١ ـ البلاء العظيم

من الابتلاء العظيم إقامة الرجل في غير مقامه. مثل أن يحوج الرجل الصالح إلى مداراة الظالم والتردد إليه، وإلى مخالطة من لا يصلح، وإلى أعمال لا تليق به، أو إلى أمور تقطع عليه مراده الذي يؤثره، مثل أن يقال للعالم: تردد إلى الأمير وإلا خفنا عليك سطوته، فيتردد فيرى ما لا يصلح ولا يمكنه أن ينكر، أو يحتاج إلى شيء من الدنيا وقد منع حقه فيحتاج أن يعرّض بذكر بذلك، أو يصرّح لينال بعض حقه، ويحتاج إلى مداراة من تصعب مداراته، بل يتشتت همه لتلك الضرورات.

وكذلك يفتقر إلى الدخول في أمور لا تليق به، مثل أن يحتاج إلى الكسب فيتردد إلى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته، وهذا لا يحتمله قلب المراقب لله سبحانه لأجل ما يخالطه من الأكدار، أو يكون له عائلة وهو فقير فيتفكر في إغنائهم، فيدخل في مداخل كلها عنده عظيمة. وقد يبتلى بفقد من يحب أو ببلاء في بدنه، وبعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه، فيرى الفاسق يقهره، والظالم يذله، وكل هذه الأشياء لا يجدي فيها إلا التسليم واللجا إلى المقدّر في الفرج، فيرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم ولا يتغير قلبه، ولا ينطق بالشكوى لسانه.

أوَ ليس الرسول ﷺ يحتاج أن يقول: «من يواريني من ينصرني»، ويفتقر إلى أن يدخل مكة في جوار كافر، ويشق السلى[1] على ظهره وتقتل أصحابه، ويشتد جوعه وهو ساكن لا يتغير، وما ذاك إلا لأنه علم أن الدنيا دار ابتلاء، لينظر كيف تعملون، ومما يهوّن هذه الأشياء علم العبد بالأجر، **وأن ذلك مراد الحق**: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

٩٢ ـ ذم البخل والجشع

لا ينكر أن الطباع تحب المال؛ لأنه سبب بقاء الأبدان، لكنه يزيد حبه في بعض القلوب حتى يصير محبوبًا لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد، فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب، ويمنعها اللذات، وتصير لذاته في جمع المال، وهذه جبلة في خلق كثير، وليس العجب أن تكون في الجهال، فأما أن يكون العالم جامعًا للمال من وجوه قبيحة من شبهات قوية وبحرص شديد وبذُل في الطلب، ثم يأخذ من الزكوات ولا تحل له مع الغنى، ثم يدخره ولا ينفع به، فهذه بهيمية تخرج عن صفات

(١) أحشاء البعير.

الآدمية، بل البهيمية أعذر؛ لأنها بالرياضة تتغير طباعها، وهؤلاء ما غيّرتهم رياضة، ولا أفادهم العلم، فالويل لهم ما أقل ما يتمتعون بظواهر الدنيا، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم؛ لأن الحق ﷻ لا يميل بالقلوب إلا إلى المخلصين، فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة. نسأل الله ﷻ عقلًا يدبر دنيانا، ويحصل لنا آخرتنا، والرزاق قادر.

٩٣ ـ أنفس الأشياء في الدنيا

ينبغي لمن عرف شرف الوجود أن يحصل أفضل الموجود، هذا العمر موسم، والتجارات تختلف، والعامة تقول: عليكم بما خفّ حمله وكثر ثمنه. فينبغي للمستيقظ أن لا يطلب إلا الأنفس، وأنفس الأشياء في الدنيا معرفة الحق ﷻ.

٩٤ ـ حقيقة الرضا

من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله ﷻ في أفعاله، وأن يدري من أين نشأَ الرضى، فليفكر في أحوال الرسول ﷺ، فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك، وللمالك التصرف في مملوكه، ورآه

حكيمًا لا يصنع شيئًا عبثًا، فسلّم تسليم مملوك لحكيم، فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير، ولا من الطبع تأفف، ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح.

هذا سيد الرسل ﷺ بعث إلى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق، فجعل يفر من مكان إلى مكان، ويخرج كل موسم فيقول: «**من يؤويني من ينصرني!**» ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر، ولم يوجد من الطبع تأنف، ولا من الباطن اعتراض، إذ لو كان غيره لقال: يا رب أنت مالك الخلق، وقادر على النصر، فلم أذل؟ كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية: ألسنا على الحق، فلم نعط الدنية في ديننا! ولمّا قال هذا، قال له الرسول ﷺ: «**إني عبد الله ولن يضيعني**» فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما.

فقوله: «**إني عبد الله**»، إقرار بالملك وكأنه قال: أنا مملوك يفعل بي ما يشاء، وقوله: «**لن يضيعني**» بيان حكمته، وأنه لا يفعل شيئًا عبثًا، هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجود، فماتت اعتراضاته فصار هواه بما يجري.

٩٥ ـ أسرع المعاصي عقوبة

قد تبغت العقوبات، وقد يؤخرها الحلم، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة، فكم مغرور بإمهال العصاة، لم يُمهل، وأسرع المعاصي عقوبة لذة تنسي النهي، فتكون تلك الخطيئة كالمعاندة والمبارزة، فإن كانت توجب اعتراضًا على الخالق أو منازعة له في عظمته، فتلك التي لا تتلافى... خصوصًا إذا وقعت من عارف بالله، فإنه يندر إهماله، ويلحق هذا أن يعيّر الإنسان شخصًا بفعل، وأعظمه أن يعيره بما ليس إليه، فيقول: يا أعمى، ويا قبيح الخلقة. وقد قال ابن سيرين: عيّرت رجلًا بالفقر فحبست على دين، وقد تتأخر العقوبة وتأتي في آخر العمر، فيا طول التعثير مع كبر السن لذنوب كانت في الشباب.. فالحذر الحذر من عواقب الخطايا والبدار البدار إلى محوها بالإنابة، فلها تأثيرات قبيحة إن أسرعت وإلا اجتمعت وجاءت.

٩٦ ـ الآدمي خُلق لأمر عظيم

اعلم أن الآدمي قد خُلِق لأمر عظيم، وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل، ولا يكفيه التقليد، وذلك يفتقر إلى

جمع الهم في طلبه وهو مطالب بإقامة المفروضات، واجتناب المحارم.

فإن سمت همته إلى طلب العلم احتاج إلى زيادة جمع الهم، فأسعد الناس من له قوت دار بقدر الكفاية، لا من منن الناس وصدقاتهم، وقد قنع به، فإنه حينئذ يجتمع همه لمطلوباته من الدين والدنيا والعلم.

حسبي من الدهر ما كفاني
يصون عرضي عن الهوان
مخافة أن يقول قومٌ
فضل فلان على فلان

فينبغي للعاقل إذا رزق قوتًا أو كان له مواد أن يحفظها ليجتمع همه، ولا ينبغي أن يبذر في ذلك فإنه يحتاج فيتشتت همه، والنفس إذا احرزت قوتها اطمأنت. فإن لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته.

ومن ينفق الأيام في حفظ ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقرُ

فافهم هذا يا صاحب الهمة، واعرف قدر شرف المال الذي أوجب جمع همك، وصان عرضك عن الخلق، وإياك أن يحملك الكرم على فرط الإخراج فتصير كالفقير المعترض.

ولمّا آيس الإمام أحمد بن حنبل نفسه من قبول الهدايا والصلات اجتمع همه وحسن ذكره.

٩٧ ـ إصابة العين تكون من حاسد شرِّير الطبع

قد رُكِّب في الطباع حب التفضيل على الجنس، فما أحد إلا وهو يحب أن يكون أعلا درجة من غيره، فإذا وقعت نكبة أوجبت نزوله عن مرتبة سواه، فينبغي له أن يتجلّد بستر تلك النكبة، لئلا يُرى بعين نقص، وليتجمّل المتعفف حتى لا يرى بعين الرحمة، وليتحامل المريض لئلّا يشمت به ذو العافية. وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء، لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها لأشد من كل نائبة، وكان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية.

ثم نكتة ينبغي التفطن لها، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ النعم، فأصابه عدوه بالعين، والعين لا تصيب إلا ما يستحسن للشيء، ولا يكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع، فإذا اجتمعت هذه الصفات خيف من إصابة العين.

فليكن الإنسان مظهرًا للتجمل مقدار ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه في خير.

وليحذر الإفراط في إظهار النعم، فإن العين هناك محذورة، وقد قال يعقوب لبنيه عليه السلام: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، وإنما خاف عليهم العين، فليُفهم هذا الفصل فإنه ينفع من له تدبر.

٩٨ ـ خلقنا لنحيا مع الخالق

إنما خلقنا لنحيا مع الخالق في معرفته ومحادثته ورؤيته في البقاء الدائم، وإنما ابتدئ كوننا في الدنيا لأنها في مثال مكتب[(١)] نتعلم فيه الخط والأدب ليصلح الصبي عند بلوغه للرتب.

فالبدار البدار يا أرباب الفهوم فإن الدنيا معبر إلى دار إقامة، وسفر إلى القرب من السلطان ومجاورته فتهيؤوا للمجالسة، واستعدوا للمخاطبة، وبالغوا في استعمال الأدب لتصلحوا للقرب من الحضرة. فالجد الجد، يا أقدام المبادرة، فقد لاح العلم خصوصًا لمن بانت له بانة الوادي، إما بالعلم الدال على الطريق، وإما بالشيب الذي هو علم الرحيل.

---

(١) مكتب: مدرسة.

٩٩ ـ الرضا بما يفعلهُ الخالق

قد سمعنا بجماعة من الصالحين عاملوا الله ﷻ على طريق السلامة والمحبة واللطف فعاملهم كذلك؛ لأنهم لا يحتمل طبعهم غير ذلك.

وفي الصحابة أنس بن النضير يقول: والله لا تكسر سن الربيع، فجرى الأمر كما قال، فقال النبي ﷺ: **«إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»**(١).

وهناك أعلى من هؤلاء يسألون فلا يجابون، وهم بالمنع راضون، فإن انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الإجابة عاد على نفسه بالتوبيخ، فقال مثلك لا يجاب، ربما قال لعل المصلحة في منعي، وهؤلاء الرجال حقًّا. والأبله الذي يرى له من الحق أن يجاب، فإن لم يجاب تذمّر في باطنه كأنه يطلب أجرة عمله، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته، وإنما العبد حقًّا من يرضى ما يفعله الخالق، فإن سأل فأُجيب رأى ذلك فضلًا، وإن منع رأى تصرف مالك في مملوك، فلم يجُل في قلبه اعتراض بحال.

---

(١) متفق عليه.

١٠٠ ـ أدب العالم مع الله ﷻ

رأيت جماعة من العلماء ينقسمون ويظنون أن العلم يدفع عنهم، وما يدرون أن العلم خصمهم وإنه يغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب، فتفكرت فإذا العلم الذي هو معرفة الحقائق، والنظر في سير القدماء، والتأدب بآداب القوم، ومعرفة الحق وما يجب له، ليس عند القوم، إنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم، وليس كذلك العلم النافع.

إنما فهم الأصول ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه، والنظر في سير الرسول ﷺ وصحابته، والتأدب بآدابهم، وفهم ما نقل عنهم هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال.

ورأيت بعض من تعبّد مدة ثم فتر، فبلغني أنه قال: قد عبدته عبادة ما عبده بها أحد، والآن قد ضعفت، فقلت: ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سببًا لرد الكل؛ لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئًا، وإنما سبب هذا الانبساط[١]

(١) معاملة الله بالرجاء دون الخوف.

الجهل بالحقائق، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم صلة بن أشيم إذا رأى السبع هرب منه، وهو يقول ـ إذا انقضى الليل عند صلاته ـ: يا رب أجرني من النار، أوَ مثلي يسأل الجنّة! وأبلغ من ذا قول عمر: وددت أن أنجو كفافًا لا لي ولا عليَّ، وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمة: أترجو لمثلي أن ينجو من النار. فأنا أحمد الله ﷻ أن تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم، فإني قد اطلعت من عظمة الخالق وسير المحققين ما يخرس لسان الانبساط، ويمحو النظر إلى كل فعل، وكيف أنظر إلى فعل المستحسن؟ وهو الذي وهبه لي وأطلعني على ما خفي من غيري، فهل حصل ذلك إلا بلطفه. وكيف أشكر توفيقي للشكر! نسأل الله ﷻ معرفة تعرفنا أقدارنا، حتى لا يبقى للعجب بمحتقر ما عندنا أثر في قلوبنا، ونرغب إليه في معرفة لعظمته تخرس الألسن أن تنطق بالإدلال[1]، ونرجو من فضله توفيقًا نلاحظ به آفات الأعمال التي بها نزهو حتى تثمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها. إنه قريب مجيب.

---

(١) الافتخار.

١٠١ ـ طيب العيش

سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة، وليس في الدنيا طيب عيش على الدوام إلا للعارف الذي شغله رضا حبيبه والتزود للرحيل إليه، فإنه إن وجد راحة في الدنيا استعان بها في طلب الآخرة، وإن وجد شدة اغتنم الصبر عليها لثواب الآخرة، فهو راض بكل ما يجري عليه.. يرى ذلك من قضاء الخالق، ويعلم أنه مراده.

فأما من طلب حظه فإنه يقلق لفوت مراده، ويتنغص لبعد ما يشتهي فلو افتقر تغير قلبه، ولو ذل تغير، وهذا لأنه قائم مع غرضه وهواه، وما أحسن قول الحصري: إيش عليّ مني، وإيش ليَّ فيَّ، وهذا كلام عارف؛ لأنه إن كان ينظر إلى حقيقة الملكة فعبد يتصرف فيه مولاه، فاعتراضه لا وجه له، وإرادته أن يقع غير ما يحب فضول في البين، وإن نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]، أفيحسن لمن باع شاة أن يغضب على المشتري إذا ذبحها أو يتغير قلبه.. والله لو قال المالك سبحانه: إنما خلقتكم ليستدل على وجودي، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة، لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول: سمعًا لما قلت وطاعة، وأي شيء لنا فينا

حتى نتكلم، فكيف وقد بالأجر الجزيل، والخلود في النعيم، الذي لا ينفد.

لكن طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة، فالصبر الصبر يا أقدام المبتدئين لاح المنزل، فكانت معرفتكم بالمبتلي حلاوة تعقبت شربة المجاهدة.. تخايلوا قرب المناجاة ولذة الحضور.

١٠٢ ـ المنع من الله عطاء

تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان: يا سفيان عدَّ منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلًا، إنما منعك لطفًا. فرأيته كلام من قد عرف الحقائق. فإن الإنسان قد يريد المستحسنات[١] الفائقات فلا يقدر، وعجزه أصلح له؛ لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه، إما بحفظهن أو بالكسب عليهن، فإن قوي عشقه لهن ضاع عمره وانقلب همّ الآخرة إلى الاهتمام بهنّ، فإن لم يردنه فذاك الهلاك الأكبر، وإن طلبن نفقة لم يطقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه، وإن أردن الوطء وهو عاجز فربما أهلكنه أو فجرن، وإن مات معشوقه هلك هو أسفًا،

(١) النساء الفائقات الجمال.

فالذي يطلب الفائق يطلب سكينًا لذبحه وما يعلم، وكذلك إنفاذ قدر القوت فإنه نعمة، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اجعل رزق آل محمد قوتًا**» ومتى كثر تشتت الهم. فالعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعم، فقنع بدفع الوقت في كل حال.

١٠٣ ـ التعلل بالأقدار

رأيت جماعة من الخلق يتعللون[١] بالأقدار، فيقول قائلهم: إن وُفقت فعلت، وهذا تعلل بارد، دفع للأمر، وهو يشير إلى رد أقوال الأنبياء والشرائع جميعها، فإنه لو قال كافر للرسول إن وفقني أسلمت، لم يجبه إلا بضرب العنق.

وكذلك قول المتعللين عن الصدقة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾ [يس: ٤٧]، ولعمري أن التوفيق أصل الفعل، ولكن التوفيق أمر خفي، والخطاب بالفعل أمر جلي، فلا ينبغي أن يتشاغل عن الجلي بذكر الخفي.

ومما يقطع هذا الاحتجاج أن يقال لهذا القائل: إن الله سبحانه لم يكلفك شيئًا، إلا وعندك أدوات ذلك

---

(١) يتحججون.

الفعل ولك قدرة عليه، فإن كانت القدرة عليه معدومة والأدوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف، وإن كنت تسعى بتلك الأدوات في تحصيل غرضك وهواك، فاسع بها في إقامة مفروضك.. مثال ذلك أنك تسافر في طلب الربح، وتسأل الحج فلا تفعل، ويثقل عليك الانتباه[1] بالليل، فلو أردت الخروج إلى العيد انتبهت سحرًا. وتقف في بعض أغراضك مع صديق تحادثه ساعات فإذا وقفت في الصلاة استعجلت، وثقل عليك. فإياك إياك أن تتعلق بأمر لا حجة لك فيه.

ثم من نصيبك ينقص، ومن حظك يضيع، فإنما تُحرّك لك، وإنما تُحرَّض لنفعك، فبادر فإنك مبادر بك، ومما يُزيل كسلك إن تأملته أن تتخايل ثواب المجتهدين وقد فاتك، كيف بك إذا قمت من قبرك وقد قربت نجائب النجاة لأقوام وتعثرت، وأسرعت أقدام الصالحين على الصراط وتخبطت، هيهات ذهبت حلاوة البطالة، وبقيت مرارة الأسف.

وما قدر البقاء في الدنيا بالإضافة إلى دوام الآخرة. ثم ما قدر عمرك في الدنيا ونصفه نوم، وباقيه غفلة.

---

(١) الاستيقاظ.

فيا خاطبًا حور الجنّة وهو لا يملك فلسًا من عزيمةٍ، افتح الفكر في ضوء العبر، فإن رأيت تثبيطًا من الباطن فاستغث بعون اللطف، وتنبه في الأسحار، وتعلق على قطار المستغفرين ولو خطوات.

١٠٤ ـ الشريعة هي الطريق

نظرت في قول أبي الدرداء رضي الله عنه: ما أعرف شيئًا مما كنا عليه اليوم إلا القبلة، فقلت: واعجبًا كيف لو رآنا اليوم[١] وما علينا من الشريعة إلا الرسم، والشريعة هي الطريق، وإنما تعرف شريعة رسول الله ﷺ إما بأفعاله أو أقواله.

وسبب الانحراف عن طريقه ﷺ إما الجهل بها فيجري الإنسان مع الطبع والعادات، وربما اتخذ ما يضاد الشريعة طريقًا.

وإن كان عامة من ينسب إلى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة فكيف العوام!

أما الأمراء فجروا مع العادت، وسموا ما يفعلونه

---

(١) مع العلم أن ابن الجوزي توفي في ٥٩٧هـ؛ أي: في القرن السادس الهجري.

من القتل والقطع سياسات لم يعملوا فيها بمقتضى الشريعة، فأين الشريعة المحمدية؟ نسأل الله ﷻ التوفيق للقيام بالشريعة.

١٠٥ ـ طلب اللذات لا نهاية له

ليس في الدنيا أبله ممن يطلب النهاية في لذات الدنيا، وليس في الدنيا على الحقيقة لذة، إنما هي راحة من مؤلم. فالسعيد من إذا حصلت له امرأة فمال إليها ومالت إليه، وعلم سترها ودينها، أن يعقد الخنصر على صحبتها، وأكثر أسباب دوام محبتها أن لا يطلق بصره، فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه في غيرها فإن الطمع في الجديد ينغصّ الخُلق وينقص المخالطة.

١٠٦ ـ اغترار الإنسان بالسلامة

أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى ولا للاغترار، فكلما أصبح وأمسى معافى زاد الاغترار وطال الأمل.

وأي موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى

حاشى من له عقل أن يسلك هذا المسلك. بل والله إن العاقل ليبادر السلامة فيدخر من زمنها للزمن. ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التي لا موت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجهد ههنا انتهب هذا الزمان فلم ينم إلا ضرورة، ولم يغفل عن عمره لحظة.

ومن رأى أن ذنبًا قد مضت لذته وبقيت آفاته دائمة، كفاه ذلك زاجرًا عن مثله، خصوصًا الذنوب التي تتصل آثارها مثل أن يزني بذات زوج فتحمل منه فتلحق بالزوج فيمنع الميراث أهله ويأخذه من ليس من أهله، وتتغير الأنساب، وكله شؤوم لحظة. فنسأل الله ﷻ توفيقًا يلهم الرشاد، ويمنع الفساد، إنه قريب مجيب.

١٠٧ ـ الرضا بتدبير الله

ينبغي للمؤمن بالله سبحانه أن لا يعترض على الله سبحانه في شيء لا في باطنه ولا في ظاهره، ولا يطلب تعليلات أفعاله، والصواب التعليل لما يمكن، والتسليم لما يخفى.

وكذلك سؤال الحق سبحانه، إذا دعاه المؤمن ولم ير إجابة سلَّم وفوض وتأول للمنع، فيقول: ربما المنع

أصلح، وربما يكون لأجل ذنوبي، وربما يكون التأخير أولى، وربما لم يكن هذا مصلحة. وإذا لم يجد تأويلًا لم يختلج في باطنه نوع اعتراض، بل يرى أنه قد تعبد بالدعاء، فإن أنعم عليه فبفضل، وإن لم يجب فمالك يفعل ما يشاء.

على أن أكثر السؤال إنما يقع في طلب أغراض الدنيا التي إذا ردت كان أصلح، فليكن هم العاقل في إقامة حق الحق سبحانه والرضا بتدبيره وإن أساء، فمتى أقبلت عليه أقبل على إصلاح شأنك، وإذا عرفت أنّه كريم فلذ به ولا تسأل، ومتى أقبلت على طاعته فمحال أن يجود صانع وينصح[1] في العمل ثم لا يعطي الأجرة.

١٠٨ ـ دخول الجنّة

والله إني لأتخايل دخول الجنّة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة تطرأ، بل صحة دائمة، في نعيم متجدد في كل لحظة إلى زيادة لا تتناهى، فأطيش، ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك لولا أن الشرع قد ضمنه.

---

(١) يحسن.

فوا عجبًا من مضيع لحظة يقع فيها تسبيحة يغرس لها في الجنّة نخلة أكلها دائم وظلها.

فيا أيها الخائف من فوت ذلك شجع قلبك بالرجاء، ويا أيها المنزعج لذكر الموت تلمح ما بعد مرارة الشربة من العافية، فإنه من ساعة خروج الروح لا بل قبل خروجها تنكشف المنازل لأصحابها. ثم الأرواح في حواصل طير تعلق في أشجار الجنّة.

فالبدار البدار قبل الغروب ولا معين يرافق على تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب، ومتى أرادك لشيء هيأك له.

فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر إلا العاجلة[١] فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل، والعزلة عن الشر حمية، والحمية سبب العافية.

١٠٩ ـ سبب الهموم والغموم

رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله ﷻ والإقبال على الدنيا، وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته. فأما من رزق معرفة بالله تعالى ـ لأنه يستغني

(١) الدنيا.

بالرضا بالقضا ـ **فمهما قُدّر له رضي** وإن دعا فلم يرَ أثر الإجابة لم يختلج في قلبه اعتراض؛ لأنه مملوك مُدبَّر فتكون همته في خدمة الخالق. ومن هذه صفته لا يؤثر جمع المال، ولا مخالطة الخلق ولا الالتذاذ بالشهوات؛ لأنه إما أن يكون مقصرًا في المعرفة فهو مقبل على التعبد المحض يزهد في الفاني لينال الباقي، وإما أن يكون له ذوق في المعرفة فإنه **مشغول عن الكل بصاحب الكل**، فتراه متأدبًا في الخلوة به، مستأنسًا بمناجاته، مستوحشًا من مخالطة خلقه، **راضيًا بما يقدّر له**، فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه، ولا يهتم بغيره.

فأما من لم يرزق هذه الأشياء، فإنه لا يزال في تنغيص، متكدر العيش؛ لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه، فيبقى أبدًا في الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بطيب المعاملة.

نسأل الله ﷻ أن يستصلحنا له، فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

١١٠ ـ كبر السن وازدياد الأمل

رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد حرصها، كما قال النبي ﷺ: «**يهرم ابن آدم ويبقى منه**

اثنتان: **الحرص والأمل»**[1].

ورأيت أكثر أسباب ذلك فراغ اليد من الدنيا وكثرة العائلة وقوة الحاجة، فيحتاج الإنسان إلى التعرض[2] بما يشين العُرض ليحصل الغرض. فقلت: يا ضياع سفر العمر وما حصل المقصود.

قد كنت أرجوك لنيل المنا
واليوم لا أطلب إلا الرِّضا

ثم قلت: يا نفس ما لك ملجأ إلا اللجا واستغاثة الغريق، فإن رُحمت وإلا فكم من حسرة تحت التراب.

١١١ ـ أبله الناس

أبله الناس من عمل على الحال الحاضرة ولم يتصور تغيرها ولا وقوع ما يجوز وقوعه.

مثاله: أن يغتر بدولة فيعمل بمقتضى ملكه فإذا تغيرت هلك، وربما عادى خلقًا اغترارًا بأنه متسلِّط أو أنه صاحب سلطان، فإذا تغيرت حاله أكل كفيه ندمًا عند

---

(١) أخرجه أحمد.
(٢) التعرض: السؤال.

فوات التدارك. وكذلك من له مال يبذره سكونًا إلى وجود المال، وينسى حاله عند العدم.

وكذا من يتناول الشهوات، ويكثر من المآكل والمشارب والنكاح ثقة بعافيته، وينسى ما يعقب ذلك من الأمراض والآفات. وكذلك يغتر الإنسان بالسلامة وينسى طروق الموت فيأتيه بغتة فيبهته، وقد فات الاستدراك ولم يبق إلا الندم. فالعاقل من كانت عينه مراقبة للعواقب، محترزة مما يجوز وقوعه، عاملة بالاحتياط في كل حال، حافظة للمال، والسر، متأهبة للرحيل **متهيئة للنقلة**[1].

١١٢ ـ التسليم صفة العقلاء

من أعجب الأمور طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله ﷻ وصفاته وأفعاله، وهيهات.

ولقد أوغل المتكلمون فما وقعوا بشيء فرجع عقلاؤهم إلى التسليم، وكذلك أصحاب الرأي مالوا إلى القياس فإذا أشياء كثيرة بعكس مرادهم، فلم يجدوا ملجأ إلّا التسليم. فالفقيه من علل بما يمكن، فإذا عجز استطرح للتسليم، هذا شأن العبيد.

(١) الانتقال من الدنيا إلى الآخرة بالموت.

فأما من يقول لم فعل كذا وما معنى كذا! فإنه يطلب الاطلاع على سر الملك، وما يجد إلى ذلك سبيلًا لوجهين:

أحدهما: أن الله تعالى ستر كثيرًا من حكمه عن الخلق. **والثاني**: أنه ليس في قوى البشر إدراك حِكم الله تعالى كلها، فلا يبقى مع المعترض سوى الاعتراض المُخرج إلى الكفر: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج] والمعنى: من رضي بأفعالي وإلا فليخنق نفسه فما أفعل إلا ما أريد.

١١٣ ـ النظر في سيرة السلف

من رزقه الله تعالى العلم، والنظر في سيرة السلف، رأى أن هذا العالم ظلمة، وجمهور العالم على غير الجادة، والمخالطة لهم تضر ولا تنفع، وإنما ينبغي أن تقع المخالطة للأرفع والأعلى في العلم والعمل ليستفاد منه، فأما مخالطة الدون فإنها تؤذي، إلا أن يكون عاميًّا يقبل من معلمه، فينبغي أن يخالط بالاحتراز.

وفي هذا الزمان[1] إن وقعت المخالطة للعوام فهم ظلمة مستحكمة فإذا ابتلي العالم بمخالطتهم فليشمر ثياب

(١) القرن السادس هجري.

الحذر، ولتكن مجالسته إياهم للتذكرة والتأديب فحسب.

وإن وقعت مخالطة للعلماء فأكثرهم على غير الجادة، مقصودهم صورة العلم لا العمل به، فلا تكاد ترى من تذاكره الآخرة، إنما شغلهم الغيبة وقصد الغلبة واجتلاب الدنيا. وإن وقعت المخالطة للأمراء، فذاك تعرض لفساد الدين، لغلبة العادة عليهم والإعراض عن الشرع. وربما رأيت في هذا الزمان أقوامًا يبذلون المال ليكونوا قضاة، أو شهودًا، ومقصودهم الرفعة.

فمن رزقه الله سبحانه النظر في سير السلف، ووفقه للاقتداء بهم أن يعتزل عن أكثر الخلق، ولا يخالطهم فإنه من خالطهم أوذي، ومن دارى لم يسلم من المداهنة، فالنصح اليوم مردود.

١١٤ ـ أسباب تساعد على الصفح الجميل

من البله أن تبادر عدوًّا حسودًا بالمخاصمة، وإن اعتذر قبلت، وإن أخذ في الخصومة صفحت ثم تبطن في الحذر منه، فلا تثق به في حال، وتتجافاه باطنًا مع إظهار المخالطة في الظاهر، وإن بالغ في السب فبالغ في الصفح تنب عنك العوام في شتمه، ويحمد العلماء على حلمك، وبالصفح يجهل مما في باطنك، ما ظفر قط من ظفر به

الإثم بل الصفح الجميل، وإنما يقع هذا[1] ممن يرى أن تسليطه عليه إما عقوبة لذنب أو لرفع درجة أو للابتلاء فهو لا يرى الخصم وإنما يرى القدرة[2].

١١٥ ـ إذا وقعت في محنة

إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها فليس لك إلا الدعاء واللجا بعد أن تقدم التوبة من الذنوب، فإن الزلل يوجب العقوبة، فإذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب، فإذا تُبُت ودعوت ولم ترَ للإجابة أثر فتفقد أمرك، فربما كانت التوبة ما صحّت، فصححها ثم ادع ولا تملَّ من الدعاء، فربما كانت المصلحة في تأخير الإجابة، وربما لم تكن المصلحة في الإجابة، فأنت تثاب وتجاب إلى منافعك، ومن منافعك أن لا تعطى ما طلبت بل تعوّض غيره. فإذا جاء إبليس فقال: كم تدعوه ولا ترى إجابة فقلُ: أنا أتعبد بالدعاء، وأنا موقن أن الجواب حاصل، غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح عليَّ مناسب، ولو لم يحصل حصل التعبد والذل.

---

(١) أي: الصفح على من تسلط عليه.

(٢) أي: قدرة الله الذي سلط هذا العدو أو الخصم.

فإيّاك أن تسأل شيئًا إلا وتقرنه بسؤال الخيرة[1]، فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سببًا للهلاك، وإذا كنت قد أمرت بالمشاورة في أمور الدنيا لجليسك ليبين لك في بعض الآراء، وترى أن ما وقع لك لا يصلح فكيف لا تسأل الخير ربك وهو أعلم بالمصالح، والاستخارة من حسن المشاورة.

١١٦ ـ الناس ينقسمون بين عالم وجاهل

نظرت إلى النّاس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل، فأما الجهال فانقسموا، فمنهم سلطان قد ربِّي في الجهل، ولبس الحرير، وشرب الخمور، وظلم الناس، وله عمال على مثل حاله، ومنهم تجار همتهم الاكتساب وجمع الأموال، وأكثرهم لا يؤدي الزكاة ولا يتحاشى من الربا فهؤلاء في صور الناس، ومنهم أرباب معاش يطففون المكيال ويخسرون الميزان ويبخسون الناس ويتعاملون بالربا، وهم في الأسواق طول النهار لا همة لهم إلا ما هم فيه، فإذا جاء الليل وقعوا نيامًا كالسكارى؛ فهمة أحدهم ما يأكل ويلتذ به، وليس عندهم من الصلاة خبر، فإن صلّى

---

(١) أي: يقول: إن كان خيرًا لي.

أحدهم نقرها أو جمع بينهما، فهؤلاء في عداد البهائم.

ومنهم من يطلب اللذات ولا يساعده المعاش فيخرج إلى قطع الطريق، وهؤلاء أحمق الجماعة، إذ لا عيش لهم، فإن التذوا لحظة بأكل أو شرب فحركت الريح قصبة هربوا خوفًا من السلطان، وما أقل بقاءهم، ثم القتل والصلب مع إثم الآخرة.

ومنهم أرباب قرى قد عمّهم الجهل، أكثرهم لا يتحاشى من نجاسة، فهم في زمرة البقر.

ورأيت النساء ينقسمن أيضًا، فمنهن المستحسنة التي تبغي، ومنهن الخائنة لزوجها في ماله، ومنهن من لا تصلي ولا تعرف شيئًا من الدين، فهؤلاء حشو النار، فإذا سمعت موعظة فإنها كما مرت على حجر، وإذا قرئ عندهن القرآن فكأنهن يسمعن السمر.

وأما العلماء، فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذي نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل، ويميل إلى الفسق ظنًّا أن العلم يدفع عنه، وإنما هو حجة عليه. وأما المتوسطون والمشهورون، فأكثرهم يغشى السلاطين ويسكت عن إنكار المنكر، وقليل من العلماء من تسلم له نيته ويحسن قصده.

فمن أراد الله به خيرًا رزقه حسن القصد في طلب

العلم، فهو يحصّله لينتفع به وينفع، ولا يبالي بعمل مما لا يدل عليه العلم، فتراه يتجافى عن أرباب الدنيا، ويحذر من مخالطة العوام، ويقنع بالقليل خوفًا من المخاطرة في الدنيا في تحصيل الكثير، ويؤثر العزلة فليس مذكرًا للآخرة مثلها.

وليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين فإنه يُحسّن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر، وإن الإنسان ليمشي في السوق ساعة فينسى بما يرى ما يعلم، فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء والطمع في أموالهم.

فأما الوحدة فإنها سبب رجوع القلب، وجمع الهم، والنظر في العواقب، والتهيؤ للرحيل وتحصيل الزاد، ولا تحسن اليوم المجالسة إلا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف.

ومجالسة العوام فتنة للدين، إلا أن يحترز مجالسهم ويمنعهم من القول فيقول هو ويكلفهم السماع، ولا يمكن الانقطاع الكلي إلا بقطع الطمع، ولا ينقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير أو يتميز بتجارة، أو أن يكون له عقار يستغله، فإنه متى احتاج تشتت الهم، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم، وتوفر على ذكر الآخرة، فذاك الذي ينفع وينتفع به. والله الموفق.

١١٧ ـ اغتنام فرصة العمر بالعلم والعمل الصالح

من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا كدر، ولذات بلا انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس، والزيادة بلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من غير تغيير ولا زوال، ولا يقال ألف ألف سنة ولا ماية ألف ألف ألف، ولو أن الإنسان عدّ الألوف ألوف سنين لا ينقضي عدده ولا كان له نهاية، وبقاء الآخرة لا نفاد له، إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر... أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل؟

إن الإعراض عن الشروع في هذا البيع والشراء لغبن فاحش في العقل، وخلل داخل في الإيمان بالوعد، فإن من يدري كيف يعقد البيع بالعلم، فهو الذي يدل على الطريق ويعرّف ما يصلح لها ويحذر من فظاعتها. ولقد دخل إبليس على طائفة من المتزهدين بآفات أعظمها أنه صرفهم عن العلم، فكأنه شرع في إطفاء المصباح ليسرق في الظلمة، حتى أنه أخذ قومًا من كبار العلماء فسلك بهم من ذلك ما ينهي عنه العلم.

فهذا كله من تلاعب إبليس بالقوم، فعليك بالعلم،

انظر في سير السلف، وإنما تشاغلوا بالقرآن والعلم فدلهم على إصلاح البواطن وتصفيتها.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ علمًا نافعًا، للعدو مانعًا. إنه قادر.

١١٨ ـ من أراد اصطفاء محبوب

من أراد اصطفاء محبوب؛ فالمحبوب نوعان: امرأة يقصد منها حسن الصورة، وصديق يقصد منه حسن المعنى.

فإذا أعجبتك صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة قبل أن يتعلق القلب بها تعلقًا محكمًا، فإن رأيتها كما تحب، وأصل ذلك كله الدين، كما قال النبي ﷺ: «**عليك بذات الدين**» فمل إليها واستولدها وكن في ميلك معتدل الميل، فإنه من الغلط أن تظهر لمحبوبك المحبة، فإنه يشتط(١) عليك وتلقى منه الأذى والتجني والهجران والإذلال وطلب الإنفاق الكثير، وإن كانت تحبك.

قال الشاعر:

لا تـظـهـرنَّ مـودةً لـحـبـيـب
فـترى بـعـيـنـك مـنـه كـلَّ عـجـيـب

---

(١) يطغى.

أظهرت يومًا للحبيب مودَّتي
فأخذت من هجرانه بنصيب

وكذا ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد؛ لأنه يتسلط عليك، ويضيع مالك، ويبالغ في الإدلال، ويمتنع عن التعلم والتأدب.

وكذلك إذا اصطفيت صديقًا وخبرته فلا تخبره بكل ما عندك. ثم كن منه على حذر فقد تتغير الأحوال وقد قيل:

احذر عدوَّك مرة
واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق
فكان أدرى بالمضرَّة

١١٩ ـ الكتمان وأخذ الحذر

وأما إذا أبغضت شخصًا فلا تظهرنَّ ذلك، فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك، وتدعوه إلى المبارزة، فيبالغ في حربك والاحتيال عليك، بل ينبغي أن تظهر له الجميل إن قدرت، وتبره ما استطعت، فتنكسر معاداته. فإن لم تطق فهجر جميل، ومتى سمعت منه كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة، فهي أقوى في كف لسانه، وكذا

ينبغي أن تكتم سِنَّك فإن كنت كبيرًا استهرموك، وإن كنت صغيرًا استحقروك.

وكذلك مقدار مالك، فإنه إن كان كثيرًا نسبوك في نفقتك إلى البخل، وإن كان قليلًا طلبوا الراحة منك.

١٢٠ ـ الصبر على الخبز ولا منّة الأنذال

العجب من الذي أنف من الذل كيف لا يصبر على جلف الخبز ولا يتعرض لمنن الأنذال، أتراه ما يعلم أنه ما بقي صاحب مروءة! وأنه إن سأل سائل بخيلًا لا يعطي، فإن أعطى نزرًا فإنه يستعبد المعطي في العمر بذلك، ثم ذاك القدر النزر يذهب عاجلًا، وتبقى المنن والخجل ورؤية النفس بعين الاحتقار، إذ صارت سائلة، ورؤية المعطي بعين التعظيم أبدًا، ثم يوجب ذلك السكوت عن معائب المعطي، والبدار إلى قضاء حقوقه وخدمته فيما بقي.

١٢١ ـ ضرر سماع علم الكلام للعوام

ليس على العوام أضرَّ من سماعهم علم الكلام، وإنما ينبغي أن يحذر العوام من سماعه والخوض فيه، كما يحذَّر الصبي من شاطئ النهر خوف الغرق. وربما ظن

العامي أن له قوة بهذا وهو فاسد، فإنه قد زلّ في هذا خلق من العلماء فكيف العوام.

وما رأيت أحمق من جمهور قصّاص زماننا، فإنه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهونهم عن خمر وزنا وغيبة، ولا يعلمونهم أركان الصلاة ووظائف التعبد، بل يملؤون الزمان بذكر الاستواء وتأويل الصفات.

وإنما على العامي أن يؤمن بالأصول الخمسة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويقنع بما قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، والاستواء حق والكيف مجهول. وليعلم أن رسول الله ﷺ لم يكلف الأعراب سوى مجرد الإيمان، ولم تتكلم الصحابة في الجواهر والأعراض، فمن مات على طريقهم مات مؤمنًا سليمًا من بدعة.

١٢٢ ـ أشد الناس جهلًا منهوم باللذات

أشد الناس جهلًا منهوم باللذات، واللذات على ضربين: مباحة ومحظورة:

فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء إلا بضياع ما هو مهم من الدين، فإذا حصل منها حبة قارنها قنطار من الهم، ثم لا تكاد تصفو في نفسها بل مكدراتها ألوف، ومع هذا فالمنهوم كلما عدَّ من لذة طلب أختها، وهذا

مرض العقل، وداء الطبع، فلا يزال هذا كذلك إلى أن يُختطف بالموت فيلقى على بساط ندم لا يستدرك، فالعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر، ثم لا يهتم بآخرته التي لذتها سليمة من شامت، منزهة عن معائب دائمة إلى الأمد، باقية ببقاء الأبد.

وإن كانت اللذة معصية انضم إلى ما ذكرناه عار الدنيا، والفضيحة بين الخلق، وعقوبة الحدود، وعقاب الآخرة وغضب الحق سبحانه.

بالله إن المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل، فكيف بالمحرمات التي هي غاية الرذائل، نسأل الله ﷻ يقظة تحركنا إلى منافعنا، وتزعجنا عن خوادعنا، إنه قريب.

١٢٣ ـ فساد العقل

تأملت على الخلق وإذا هم في حال عجيبة يكاد يقطع معها بفساد العقل.

وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ وتذكر له الآخرة، فيبكي وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه.

فتأملت السبب مع أن الاعتقاد صحيح والفعل بطيء، فإذا له ثلاثة أسباب:

أحدها: رؤية الهوى العاجل، فإن رؤيته تشغل عن الفكر فيما يجنيه.

والثاني: التسويف بالتوبة، فلو حضر العقل لحذّر من آفات التأخير، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة، والعجب ممن يجوز سلب روحه قبل مضي ساعة ولا يعمل على الحزم، غير أن الهوى يطيل الأمد، وقد قال صاحب الشرع ﷺ: «**صلُّوا صلاة مودع**»[1].

وهذا نهاية الدواء لهذا الداء، فإنه من ظن أنه لا يبقى إلى صلاة أخرى جدّ واجتهد.

والثالث: رجاء الرحمة، فيُرى العاصي يقول: ربي رحيم، وينسى أنه شديد العقاب. ولو علم أن رحمته ليست رقة إذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفورًا، ولا آلم طفلًا، وعقابه غير مأمون، فإنه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط.

١٢٤ ـ النفس ينبغي أن تكون ذليلة للخالق

نظرت في قول رسول الله ﷺ لما لبس الخاتم ثم رمى به وقال: «**شغلني هذا عنكم منذ اليوم إليه نظرة**

(١) جامع الأحاديث للسيوطي.

وإليكم نظرة»[١]، وقوله ﷺ: «**هذا رجل يتبختر في حلته مرجِّلًا جُمَّته خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»**[٢].

فرأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يلبس ثوبًا معجبًا ولا شيئًا من زينة؛ لأن ذلك يوجب النظر إلى النفس بعين الإعجاب، والنفس ينبغي أن تكون ذليلة للخالق، ولما لبس رسول الله ﷺ خميصة لها أعلام قال: «**ألهتني هذه عن صلاتي**»[٣]، وهذا كله يوجب الإعراض عن الزينة وما يحرك إلى الفخر والزهوِّ والعجب، ولهذا حرم الحرير.

١٢٥ ـ من أراد اجتماع همه وإصلاح قلبه

من أراد اجتماع همه واصلاح قلبه، فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان[٤]، فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكره، فصار الاجتماع على ما يضر.

وقد جربت على نفسي مرارًا أن أحصرها في بيت

---

(١) النسائي.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الموطأ.

(٤) أي: القرن الخامس هجري، فكيف يكون الحال في هذا الزمان.

العزلة، فتجتمع هي ويضاف إلى ذلك النظر في سير السلف فأرى العزلة حمية والنظر في سير القوم دواء، فإذا فسحت لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم تشتت القلب المجتمع، ووقع الذهول عما كنت أراعيه، وانتفش في القلب ما قد رأته العين، وفي الضمير ما تسمعه الأذن، وفي النفس ما تطمع في تحصيله من الدنيا، وإذا جمهور المخالطين أرباب غفلة، والطبع بمجالستهم يسرق من طباعهم. فإذا عدت أطلب القلب لم أجده، وأروم ذاك الحضور فأفقده.

وما فائدة تعريض البنا للنقض، فإن دوام العزلة كالبنا، والنظر في سير السلف يرفعه، فإذا وقعت المخالطة انتقض ما بني في مدة في لحظة.

١٢٦ ـ سبب الهداية

تفكرت في سبب هداية من يهتدي وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته، فوجدت السبب الأكبر اختيار الحق ﷻ لذلك الشخص، كما قيل: إذا أرادك لأمر هيأك له. فتارة تقع اليقظة بمجرد فكر يوجبه نظر العقل، فيتلمح الإنسان وجود نفسه فيعلم أن لها صانعًا، وقد طالبه بحقه وشكر نعمته وخوفه عقاب مخالفته. ولا يكون ذلك بسبب ظاهر،

ومن هذا ما جرى لأهل الكهف، ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، وفي التفسير:

إن كل واحد منهم ألقى في قلبه يقظة فقال: لا بد لهذا الخلق من خالق، فاشتد كرب بواطنهم فخرجوا إلى الصحراء، فاجتمعوا عن غير موعد، فكل واحد يسأل الآخر: ما الذي أخرجك فتصادقوا.

واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالأقدام، وإنما يقطع بالقلوب.

والشهوات العاجلة قطاع الطريق والسبيل كالليل المدلهم.

١٢٧ ـ مبدأ الإنسان ومنتهاه

عجبت لمن يُعجب بصورته ويختال في مشيته وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء، ونحو ذلك طبخته الكبد فأخرجت منه قطرات مني فحركتها الشهوة، فصبت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها فخرجت طفلًا يتقلب في خرق البول. وأما آخر، فإنه يلقى في التراب فيأكله الدود.

إنما الروح عليها العمل، فإن تجوهرت بالأدب وتقومت بالعلم، وعرفت الصانع، وقامت بحقه فما يضرها

نقض المركب[1]، وإن هي بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين بل صارت أحسن حالة منه.

١٢٨ ـ الرضا بالقليل

هيهات أن يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا، خصوصًا بالشاب الفقير الذي قد ألف الفقر، فإنه إذا تزوج وليس له شيء من الدنيا اهتم بالكسب أو بالطلب من الناس، فتشتت همته وجاءه الأولاد فزاد الأمر عليه، ولا يزال يرخص لنفسه بما يحصل إلى أن يتلبس بالحرام. فأي قلب يحضر له، وأي هم يجتمع؟ هيهات!..

والله لا يجتمع الهم والعين تنظر إلى الناس، والسمع يسمع حديثهم، واللسان يخاطبهم، والقلب متوزع في تحصيل ما لا بد منه. فإن قال قائل: فكيف أصنع؟ قلت: إن وجدت ما يكفيك من الدنيا، أو معيشة تكفيك فاقنع بها، وانفرد في خلوة عن الخلق مهما قدرت، وإن تزوجت فبفقيرة تقنع باليسير، وتصبر أنت على صورتها وفقرها.

فإن رزقت امرأة صالحة جمعت همك، وإن لم تقدر فمعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة، وإياك

(١) شبه الجسد بالمركب.

والمستحسنات[1] فإن صاحبهن إذا سلم كعابد صنم، وإذا حصل بيدك شيء فأنفق بعضه، فبحفظ الباقي تحفظ شتات قلبك.

واحذر كل الحذر من هذا الزمان وأهله فما بقي مواس ولا مؤثر، ولا من يهتم لسد خلة، ولا من لو سئل أعطى إلا أن يعطي نذرًا بتضجر، ومنّة يستعبد بها المعطي بقية العمر.

فالبعد البعد عن من همته الدنيا ولا تكاد ترى إلا عدوًّا في الباطن صديقًا في الظاهر شامتًا ببطانه حسودًا على نعمته، فاشتر العزلة فإن من له قلب[2] إذا مشى في الأسواق وعاد منزله تغير قلبه، فكيف إذا عرقله بالميل إلى أسباب الدنيا.

١٢٩ ـ المريد إذا أظلم قلبه

كان المريد في بداية الزمان إذا أظلم قلبه أو مرض لبه، قصد زيارة الصالحين فانجلى ما أظلم. ومتى حصلت ذرة من الصدق لمريد فردته في بيت عزلة، ووجد نسيمًا من روح العافية، ونورًا في باطن قلبه، وكاد همه يجتمع

---

(١) فائقات الجمال.

(٢) أي: قلب حي بذكر الله ومعرفته.

وشتاته ينتظم، فخرج فلقي من يومئ إليه بعلم أو زهد رُئي عند البطالين وهو يجري معهم مسلك الهذيان الذي لا ينفع، وأهون ما عليه تضييع الأوقات في الحديث الفارغ. فما يرجع المريد عن ذلك الموطن إلا وقد اكتسب ظلمة في القلب وشتاتًا في العزم، وغفلة عن ذكر الآخرة فيعود مريض القلب، يتعب في معالجته أيامًا كثيرة حتى يعود إلى ما كان فيه، وربما لم يعد لأن المريد فيه ضعف.

فالأولى للمريد اليوم أن لا يزور إلا المقابر ولا يفاوض إلا الكتب، التي قد حوت محاسن القوم، وليستعن بالله على التوفيق لمراضيه، فإنه إن أراده هيأه لما يرضيه.

١٣٠ ـ الذين يختارهم الحق

تأملت الذين يختارهم الحق ﷻ لولايته والقرب منه، فقد سمعنا أوصافهم فوجدته سبحانه لا يختار إلا شخصًا كامل الصورة، فتراه حسن الوجه معتدل القامة سليمًا من آفة في بدنه. ثم يكون كاملًا في باطنه، سخيًا جوادًا عاقلًا غير خب[١] ولا خادع ولا حقود ولا حسود ولا فيه عيب من عيوب الباطن.

---

(١) الخب: الخبث والغش.

فذاك الذي يربيه من صغره فتراه في الطفولة معتزلًا عن الصبيان، فهو حريص على العلم، منكمش على العمل، محافظ للزمان، مراع للأوقات، ساع في طلب الفضائل، خائف من النقائص، ولو رأيت التوفيق والإلهام الرباني كيف يأخذ بيده إن عثر، ويمنعه من الخطأ إن هم، ويستخدمه في الفضائل، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه.

ثم ينقسم هؤلاء: فمنهم من تفقه على قدم الزهد والتعبد، ومنهم من تفقه على العلم واتباع السُّنَّة، ويندر منهم من يجمع له الكل ويرقيه إلى مزاحمة الكاملين.

١٣١ ـ أكثر الخلائق على طبع رديء

أكثر الخلائق على طبع رديء لا تقوِّمه الرياضة. لا يدرون لما خلقوا ولا المراد منهم. غاية همتهم حصول بغيتهم من أغراضهم، ولا يسألون عند نيلها ما اجتلبت لهم من ذم، يبذلون العِرض دون الغرض، ويؤثرون لذة ساعة، وإن اجتلبت لهم زمان مرض.

إن كسبوا فشبهة، وإن أكلوا فشهوة، فإذا أصبحوا سعوا في تحصيل شهواتهم بحرص خنزير، وتبصبص كلب، وافتراس أسد، وغارة ذئب، وروغان ثعلب.

ويتأسفون عند الموت على فقد الهوى لا على عدم التقوى. ذلك مبلغهم من العلم.

١٣٢ ـ لطف الله تعالى

إن لطفه تعالى في البداية دليل على النهاية، حنن الوالدين، وأجرى اللبن في الثدي، وأنشأ الأطعمة، وأطلع العقل على العواقب. أفيحسن أن يقال بعد هذا التدبير: أنه يهمل بعد الموت فلا يبعث؟ أترى من أحب أن يعرف فأنشأ الخلق وقال: كنت كنزًا لا أُعرف فأحببت أن أعرف، يؤثر أن يعدمهم فيجهل قدره! سبحان من أعمى أكثر القلوب عن معرفته.

١٣٣ ـ حفظ ذخائر النفس

للنفس ذخائر في البدن، منها الدم والمني وأشياء تتقوى بها، فإذا فقدت الذخائر ولم يبق منها شيء ذهبت.

ومن ذخائرها التقوّي بالمال والجاه وما يوجب الفرح، وقد يهجم عليها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يقاومه فتذهب، ويغب عليها الفرح فلا تجد من الحزن ما يقاومه فتذهب. فاجتهد في حفظ ذخائرها، وخصوصًا لشيخ وليحفظ ذو الأنفة على نفسه حشمته، بأن لا يقف

في موقف يعاب به، فإنه يتمتع بذخيرة العز والأنفة، وكذلك ينبغي أن يستعد لآخر عمره بالمال مخافة أن يحتاج فيذل، ولأن يخلّف لعدوه أولى من أن يحتاج إلى صديقه، ولا يلتفت إلى من يذم المال، فإنهم الحمقى الجهال الذين اتكلوا على خبز الراحة، فاستطابوا الكسل، ولم يأنفوا من تناول الصدقة ولا من التعرض للسؤال، وقد كان لكل نبي معاش ولجميع الصحابة، وخلفوا أموالًا كثيرة فافهم هذا الأصل، ولا تلتفت إلى كلام الجهال.

١٣٤ ـ ينبغي للعاقل أن يحترز

ينبغي للعاقل أن يحترز[١] غايه ما يمكنه، فإذا جرى القدر بعكس احترازه لم يلم، والاحتراز من كل شي يمكن وقوعه، وأخذ العدة لذلك، وهذا يكون في كل حال.

وانظر إلى احتراز رسول الله ﷺ حين مر على حائط مائل فأسرع.

وينبغي أن يحترز بالكسب زمن شبابه ادخارًا لزمن شيبه ولا ينبغي أن يثق بمعامل إلا بوثيقة، ويبادر بالوصية مخافة أن يطرقه الموت، ويحترز من صديقه فضلًا عن

(١) يحترس.

عدوه، وليحترز من زوجته، فربما أطلعها على سره ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به.

وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة وتحقيق التوبة قبل أن يهجم ما لا يؤمن هجومه[1]، وليحذر من لص الكسل، فإنه محتال على سرقة الزمان.

١٣٥ ـ التوسل إلى الله بذكر نعمته

بلغني عن بعض الكرماء أن رجلًا سأله فقال: أنا الذي أحسنت إليه يوم كذا وكذا، فقال: مرحبًا بمن يتوسل إلينا بنا، ثم قضى حاجته. فأخذت من ذلك إشارة فناجيت بها فقلت: أنت الذي هديته من زمن الطفولة وحفظته من الضلال، وعصمته عن كثير من الذنوب، وألهمته طلب العلم لا بفهم لشرف، لموضع الصغر. ورزقته فهمًا لتفقيهه وتصنيفه، وهيأت له أسباب جمعه، وقمت برزقه من غير تعب منه، ولا ذل للخلق بالسؤال، وحاميت عنه الأعداء، فلم يقصده جبار، وجمعت له ما لم يُجمع لأكثر الخلق من فنون العلم التي لا تكاد تجتمع في شخص، وأضفت إليها تعلق

---

(١) كمرض أو موت.

القلب بمعرفتك ومحبتك وحسن العبادة ولطفها في الدلالة عليك ووضعت له في القلوب القبول حتى أن الخلق يُقبلون عليه ويقبلون ما يقوله، ولا يشكون فيه، ويشتاقون إلى كلامه، ولا يدركهم الملل منه، وصنته بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح، وآنسته في خلوته بالعلم تارة وبمناجاتك أخرى، وإن ذهبت أعد لم أقدر على إحصاء عشير العشير ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فيا محسنًا إلي قبل أن أطلب لا تخيب أملي قبل وأنا أطلب، فبإنعامك المتقدم أتوسل إليك.

١٣٦ ـ المُعافى لا يعرف قدر العافية

رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا في المرض كما لا يعرف شكر الإطلاق إلا في الحبس، وتأملت على الآدمي حالة عجيبة، وهو أن يكون معه امرأة لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلقًا يلتذ به.

ولذلك سببان:

أحدهما: أن تكون غير غاية في الحسن.

والثاني: أن كل مملوك مكروه، والنفس تطلب ما لا تقدر عليه، فتراه يضج ويشتهي شيئًا يحبه أو امرأة

يعشقها، ولا يدري أنه إنما يطلب قيدًا وثيقًا يمنع القلب من التصرف في أمور الآخرة، أو في علم أو عمل فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق، همه كله معه فالعجب بمطلق[1] يؤثر القيد، ومستريح يؤثر التعب.

فإن كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ فالويل له لا قرار له ولا سكون، وإن كانت من المتبرجات اللواتي لا يؤمن فسادهن فذاك هلاكه بمرة، وإن كانت تريد نفقة واسعة وليس له، فكم يدخل مدخل سوء لأجلها، وإن كانت تؤثر الجماع وقد علت سنة فذاك الهلاك العظيم.

فليتق الله من عنده امرأة لا بأس بها وليعرض عن حديث النفس ومناها فما له منتهى، ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب ثالثة، ثم يقع الملل ويطلب رابعة، وما لهذا أخير، فيبقى كالمبهوت، فكره كله في تحصيل ما يريد محبوبه، وإن المستحسن المصون الدين القنوع المحب لمن حبه أقل من الكبريت الأحمر فلينظر في تحصيل ما يجمع معظم الهم. ولا يلتفت إلى سواد الهوى وغاية المنى، وقد سلم.

---

(١) حر طليق.

١٣٧ ـ إذا تمَّ علم الإنسان

إذا تمَّ علم الإنسان لم ير لنفسه عملًا وإنما يرى إنعام الموفق لذلك العمل الذي يمنع العاقل أن يرى لنفسه عملًا أو يعجب به، وذلك بأشياء، منها أنه وفَّق لذلك العمل ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ومنها أنه إذا قيس ـ أي: العمل ـ بالنعم لم يف بمعشار عشرها، ومنها أنه إذا لوحظت عظمة المخدوم احتقر كل عمل وتعبد. هذا إذا سلم من شائبة وخلص من غفلة. فأما والغفلات تحيط به فينبغي أن يغلب الحذر من رده، ويخاف العتاب على التقصير فيه، فبشتغل عن النظر إليه، وتأمل على الفطنا أحوالهم في ذلك:

فالملائكة الذين يسبحون بالليل والنهار لا يفترون قالوا: ما عبدناك حق عبادتك.

والخليل عليه السلام يقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾ [الشعراء: ٨٢]، ورسول الله ﷺ يقول: «**ما منكم من ينجيه عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**».

وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبر، ويوجب مساكنة الذل، فتأمله فإنه أصل عظيم.

١٣٨ ـ الخوف من الذنوب

ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها، ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح: «أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام فيقولون: اشفع لنا فيقول ذنبي، وإلى نوح عليه السلام فيقول: ذنبي، وإلى إبراهيم، وإلى موسى، وإلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم» فهؤلاء إذا اعتبرت ذنوبهم لم تكن أكثرها ذنوبًا حقيقة، ثم إن كانت فقد تابوا منها، واعتذروا وهم بعد على خوف منها. ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يرتفع، وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: واسوأتاه منك وإن عفوت، فأفٍ والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لا تزول عن قلب المؤمن وإن غفر له، فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلًا، وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد؛ لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة، وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل.

١٣٩ ـ الدنيا ليست لبلوغ الأغراض

من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف فإنه موضوع على عكس[١] الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس[٢] بانعكاس الأغراض، فإن دعا وسأل بلوغ غرض تعبد بالدعاء، فإن أعطي مراده شكر، وإن لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلح في الطلب؛ لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض، وليقل لنفسه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن أعظم الجهل أن يتمغص في باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض في الباطن، وربما قال: حصول غرضي لا يضر، ودعائي لم يستجب.

وهذا كله دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة، ومن الذي حصل له غرض ثم لم يكدر. هذا آدم طاب عيشه في الجنة وأخرج منها، ونوح سأل في ابنه لم يعط مراده، والخليل ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء، وداود وسليمان بالفتنة، وجميع الأنبياء على هذا،

---

(١) عدم حصول.

(٢) أي: أن يعتاد عدم بلوغ ما يريد ويحب.

وما لقي نبينا محمد ﷺ من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم.

فالدنيا وضعت للبلاء فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم إن ما حصل من المراد فلطف، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا، كما قيل:

طبعت على كدر وأنت تريدها
صفوًا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب في الماء جذوة نارِ

وها هنا يتبين قوة الإيمان وضعفه فليستعمل المؤمن من أدوية هذا المرض التسليم للمالك، والتحكيم لحكمته، وليقل قد قيل لسيد الكل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ثم ليسلِّ نفسه، بأن المنع ليس بخل، وإنما هو لمصلحة لا يعلمها، وليؤجر الصابر عن أغراضه، وليعلم الله الذين سلّموا ورضوا، وإن زمن الابتلاء مقدار يسير، والأغراض مدخرة[١] تلقى بعد قليل، وكأنه بالظلمة قد انجلت، وبفجر الأجر قد طلع، ومتى ارتقى فهمه إلى أن ما جرى مراد الحق سبحانه، اقتضى إيمانه أن يريد ما

(١) محفوظه إلى الوقت الذي يحدده الله تعالى.

يريد الله تعالى، ويرضى بما يقدر، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجًا عن بقية العبودية في المعنى، وهذا أصل ينبغي أن يتأمل ويعمل عليه في كل غرض انعكس.

١٤٠ ـ الصبر على ضيق الدنيا

رأيت خلقًا من العلماء تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم.

وأول ما يجري على ذاك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه، وقد رأى بعض الصالحين رجلًا عالمًا يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي فقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع، ألم تر المنكرات ولا تنكر، وتتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبك، وتحرم لذة المعاملة للحق سبحانه، ولا يقدر لك أن يهتدي بك أحد، بل ربما كان فعل هذا سببًا لإضلال النّاس في الاقتداء به، فهو يؤذي نفسه ويؤذي أميره؛ لأنه يقول لولا أنني على صواب ما صحبني ولأنكر علي.

ويؤذي العوام تارة بأن يروا أن ما فيه الأمير صواب، وأن الدخول والسكوت عن الإنكار جائز، ويحبب إليهم الدنيا، ولا خير والله في سعة من الدنيا ضيَّقت طريق الآخرة.

وأنا أفدي أقوامًا صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضا، وبقيت أذكارهم تُروىَ فتروي صدأ القلوب وتجلو صداها.

هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقاط ولا يقبل مال السلطان.

فالصبر الصبر يا من وفق، ولا تغبطن من اتسع له أمر الدنيا، فإنك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقًا في باب الدين.

١٤١ ـ الناس أكثرهم تارك للعبودية

تأملت أحوال الناس فرأيت جمهورهم منسلًا من ربقة العبودية، فإن تعبدوا فعادة أو فيما لا ينافي أغراضهم. فأكثر السلاطين يحصّلون الأموال من وجوه ردية وينفقونها في وجوه لا تصلح، والعلماء لقوة فقرهم وشدة شرههم يوافقون وينخرطون في سلكهم، والتجار على العقود الفاسدة، والعوام في المعاصي والإهمال لجانب الشريعة، فإن فات بعض أغراضهم فربما قالوا ما نريد نصلي، لا صلى الله عليهم، وقد منعوا الزكاة وتركوا الأمر بالمعروف، فمن الناس من يغرُّه تأخير العقوبة،

ومنهم من كان يقطع بالعفو وأكثرهم متزلزل الإيمان. . فنسأل الله أن يميتنا مسلمين.

١٤٢ ـ من حفظ المال حفظ دينهُ

من العجيب سلامة دين ذي العيال إذا ضاق به الكسب، فإذا لم يقدر على الحلال ترخَّص في تناول الشبهات، فإن ضعف دينه مد يده إلى الحرام. فالمؤمن إذا علم ضعفه عن الكسب اجتهد في التعفف عن النكاح، وتقليل النفقة إذا حصل الأولاد، والقناعة باليسير. فأما من ليس له كسب كالعلماء والمتزهدين فسلامتهم بعيدة، فإذا كثرت عائلتهم لم يؤمن عليهم شر مما يجري على الجهال. فمن قدر منهم على كسب بالنسخ وغيره فليجتهد فيه مع تقليل النفقة والقناعة باليسير، فإن منهم من ترخص اليوم أكل الحرام؛ لأنه يأخذ من الظلمة، ومن كان له مال فليجتهد في تنميته وحفظه، فما بقي من يؤثر ولا من يقرض، وقد صار الجمهور بل الكل كأنهم يعبدون المال، فمن حفظه حفظ دينه، ولا يلتفت إلى قول الجهلة الذين يأمرون بإخراج المال، فما هذا وقته.

واعلم أنه إذا لم يجتمع الهم، لم يحصل العلم ولا العمل ولا التشاغل بالفكر في عظمة الله، وقد كان هم

القدماء يجتمع بأشياء، جمهورها أنه كان لهم من بيت المال نصيب في كل عام، وفيهم من كان له مال يتَّجر به كسعيد بن المسيب وسفيان وابن المبارك وكان همه مجتمعًا، وفقدت بضاعة لابن المبارك فبكى، وقال: هو قوام ديني.

فالله الله يا من يريد حفظ دينه، قد كررت عليك الوصية بالتقليل جهدك، وخفف العلائق مهما أمكنك، واحتفظ بدرهم يكون معك فإنه دينك، وافهم ما قد شرحته، فإن ضجَّت النفس لمراداتها فقل لها: إن كان عندك إيمان فاصبري، وإن أردت التحصيل لما يفنى ببذل الدين فما نفعك، فتفكري في العلماء الذين جمعوا من غير وجه ذهب دينهم، وزالت دنياهم، وتفكري في العلماء الصادقين كأحمد وبشر، اندفعت الأيام وبقي لهم حسن الذكر. وفي الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق]، ورزق الله تارة بإبعاد الصبر على البلاء والأيام تندفع، وعاقبة الصبر الجميل جميلة.

١٤٣ ـ تؤتى البيوت من أبوابها

شكا رجل من بغضه لزوجته وقال: ما أقدر على فراقها لأمور منها: كثرة دَينها عليّ وصبري قليل، ولا

أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى، وفي كلمات تعلم بغضي لها. فقلت له: لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، فينبغي أن تخلو بنفسك فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك فتبالغ في الاعتذار والتوبة، فأما التضجر والأذى لها فما ينفع كما قال الحسن عن الحجّاج: عقوبة من الله لكم فلا تقابلوا عقوبته بالسيف وقابلوها بالاستغفار.

واعلم أنك في مقام مبتلى ولك أجر بالصبر ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى واسأله الفرج.

فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر على القضاء وسؤال الفرج، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها، ولا تضيع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتل ظانًا منك أنك تدفع ما قدّر: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقد روينا أن جنديًّا نزل يومًا في دار أبي يزيد، فجاء أبو يزيد فرآه، فوقف وقال لبعض أصحابه: ادخل إلى المكان الفلاني فاقلع الطين الطري فإنه من وجهة فيه شبهة، فقلعه فخرج الجندي.

وقد روي عن بعض السلف أن رجلًا شتمه فوضع

خدّه على الأرض، وقال: اللَّهُمَّ اغفر لي الذنب الذي سلطت هذا به عليَّ.

وليس للقيد ذنب فيلام، إنما ينبغي التشاغل مع من قيّده[1] والسلام.

١٤٤ ـ جمع الهم

لا ريب أن القلب المؤمن بالإلٰه سبحانه وبأوامره يحتاج إلى الانعكاف على ذكره وطاعته وامتثال أوامره، وهذا يفتقر إلى جمع الهم، وكفى بما وضع في الطبع من المنازعة إلى الشهوات مشتتًا للهم المجتمع، فينبغي للإنسان أن يجتهد في جمع همه لينفرد همه بذكر الله ﷻ وأوامره والتهيؤ للقائه. وذلك إنما يحصل بقطع القواطع والامتناع عن الشواغل، وما يمكن أن يقطع القواطع جملة، فينبغي أن يقطع ما يمكن. وما رأيت مشتتًا للهم مبددًا للقلب مثل شيئين:

أحدهما: أن تطاع النفس في طلب كل شيء تشتهيه

---

(١) أي: لا يجب لوم الحبل وإنما يجب النظر لمن قيّده بالحبل والمعنى هنا؛ أي: لا تنظر إلى من أذاك فهو كالحبل ولكن انظر إلى من أرسل وسلّط عليك من يؤذيك بذنوبك وهو الله تعالى.

وذلك لا يوقف على حد فيه، فيذهب الدين والدنيا ولا ينال كل المراد، مثل أن تكون الهمة في المستحسنات أو في جمع المال أو في طلب الرياسة وما يشبه هذه الأشياء، فيا له من شتات لا جامع له، يذهب ولا ينال بعض المراد.

والثاني: مخالطة الناس خصوصًا العوام والمشي في الأسواق، فإن الطبع يتقاضى بالشهوات وينسى الرحيل عن الدنيا، ويحب الكسل عن الطاعة والبطالة، والغفلة والراحة، فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة.

ولا يزال يخالطهم حتى تهون عليه الغيبة وتضيع الساعات في غير شيء، فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة بحيث لا يسمع صوت أحد، فحينئذٍ يخلو القلب بمعارفه ولا تجد النفس رفيقًا مثل الهوى يذكرها ما تشتهي، فإذا اضطر إلى المخالطة كان على وفاق، كما تتهوى الضفدع لحظة ثم تعود إلى الماء فهذه طريق السلامة، فتأمل فوائدها.

١٤٥ ـ سب الزمان

ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبّهم للزمان وعيبهم للدهر، وقد كان هذا في الجاهلية، ونهى

رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**».

ومعناه: أنتم تسبون من فرّق شملكم وأمات أهليكم، وتنسبونه إلى الدهر، والله تعالى هو الفاعل لذلك.

١٤٦ ـ إياك أن تشغل قلبك بغير ما خلق له

من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما بين أيدينا مع العلم بقصر العمر، وأن زيادة الثواب هناك بقدر العمل ههنا، وإياك أن تشغل قلبك بغير ما خلق له، واحمل نفسك على المرّ واقمعها إذا أبت.

١٤٧ ـ الاحتراز من الناس

قد كررت هذا المعنى في هذا الكتاب، وهو الأمر بحفظ السر والحذر من الانبساط فيما لا يصلح بين يدي من يظنه صديقًا، فيكون سبب هلاك ذاك.

فأوصي السليم الصدر الذي يظن في الناس الخير أن يحترز من الناس، وأن لا يقول في الخلق كلمة لا تصلح للخلق، ولا يغتر بمن يظهر الصداقة أو التدّين فقد عمّ الخبث.

١٤٨ ـ عبادة الغافل وعبادة المتيقظ

تأملت على أكثر النّاس عباداتهم فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة، فعادتهم عبادة حقيقية. فإن الغافل يقول سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجايب المخلوقات، أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك، فيقول: سبحان الله. ولو إنسانًا تفكر في رمّانة، فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء عليه يحفظه. وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم، إلى غير ذلك من المخلوقات، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق، فقال: سبحان الله، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر، فهذا تسبيح المتيقظين، وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة.

وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذلك حذر الباطن وقلق القلب وندم النفس، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: استغفر الله، فهذا هو التسبيح والاستغفار. فأما الغافلون فيقولون: ذلك عادة، وشتّان ما بين الفريقين.

١٤٩ ـ هذا العالم المظلم

لا يصفو التعبد والتزهد والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلي عن الخلق، بحيث لا يبصرهم ولا يسمع كلامهم إلا في وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة، ويحترز في تلك الساعات منهم. وإن كان عالمًا يريد نفعهم وعدهم وقتًا معروفًا واحترز في الكلام. وأما من يمشي في الأسواق ويبيع ويشتري مع هذا العالم المظلم، ويرى المنكرات والمستهجنات فما يعود إلى البيت إلا وقد أظلم القلب. فلا ينبغي للمريد أن يكون خروجه إلا إلى الصحراء والمقابر، وقد كان جماعة من السلق يبيعون ويشترون ويحترزون، ومع هذا ما صفا لصافيهم وقت حتى قاطع الخلق. قال أبو الدرداء: «زاولت العبادة والتجارة فلم يجتمعا، فاخترت العبادة». فمن اضطر إلى المخالطة والكسب للعائلة، فليحترز احتراز الماشي في الشوك، وبعيد سلامته.

١٥٠ ـ لذة المناجاة بدوام التقوى

من رزق قلبًا طيبًا ولذة مناجاة فليراع حاله وليحترز من التغير، وإنما تدوم له حاله بدوام التقوى. وكنت قد

رزقت قلبًا طيبًا ومناجاة حلوة، فأحضرني بعض أرباب المناصب إلى طعامه، فما أمكن خلافه، فتنازلت وأكلت منه فلقيت الشدائد، ورأيت العقوبة في الحال، واستمرت مدة، وفقدت كل ما كنت أجده. فقالت النفس: ومن لي أن عين هذا حرام؟ فقالت اليقظة: وأين الورع عن الشبهات! فلما تناولت لقمة استجلبتها بالطبع لقيت الأمرين بفقد القلب، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

١٥١ ـ همة المؤمن متعلقة بالآخرة

همّة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة. وكل من شغله شيء فهمته شغله.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلمًا ذكر العقاب، وإن سمع صوتًا فظيعًا ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نيامًا ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنّة، وذلك يشغله عن كل مأثم، وأعظم ما عنده أنه يتخايل دوام البقاء في الجنّة، وإن بقاءه لا ينقطع ولا يزول ولا يعتريه نغصة، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلبًا في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى يطيش فرحًا ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه، ثم يتخايل

المؤمن دخول النار والعقوبة فيتنغص عيشه، ويقوى قلقه، فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها، فإذا نازله الموت قوّى ظنّه الملائكة بالسلامة، ورجا لنفسه النجاة فيهون عليه، فإذا نزل إلى القبر وجاءه يسألونه، قال بعضهم لبعض: دعوه فما استراح إلا الساعة. نسأل الله ﷻ يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل، وتمنعنا من اختيار الرذائل، فإنه إن وفق، وإلا فلا نافع.

١٥٢ ـ فهم معنى الوجود

واعجبًا من موجود لا يفهم معنى الوجود، فإن فهم لم يعمل بمقتضى فهمه، يعلم أن العمر قصير وهو يضيعهُ بالنوم والبطالة والحديث الفارغ وطلب اللذات، فأنت تستوفي مطلوباتك منه، ولا تستوفي حقه عليك ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين].

فسبحان من منَّ على أقوام فهموا المراد فأتعبوا الأجساد، وغطى على قلوب آخرين فوجودهم كالعدم.. والله إن وجودك دليل وجوده، وإن نعمه عليك دليل جوده. فكما قدمك على سائر الحيوانات، فقدمه على كل المطلوبات. وا خيبة من جهله، وأفقر من أعرض عنه، وأذل من اعتز بغيره، وا حسرة من اشتغل بغير خدمته.

١٥٣ ـ مخالطة من لا يصلح أذى للمؤمن

ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح، فإن الطبع يسرق، فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله، فإن رؤية الدنيا تحث على طلبها، وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم وأحوالهم، خصوصًا لمن له نفس تطلب الرفعة، وكذا سماع الأغاني، وينبغي للمنفرد لطاعة الله تعالى عن الخلق أن لا يخرج إلى سوق جهده، فإن خرج ضرورة غض بصره، وأن لا يزور صاحب منصب ولا يلقاه، فإن اضطر دارى الأمر، ولا يخالط عاميًّا إلا لضرورة مع التحرز، ولا يفتح على نفسه باب التزوج بل يقنع بامرأة فيها دين.

فإن كان يغلب عليه العلم انفرد بدراسته، وإن غلبت عليه العبادة، زاد في احترازه، وليجعل خلوته أنيسه، والنظر في سير السلف جليسه، وليكن له وظيفة من زيارة قبور الصالحين والخلوة بها، ولا ينبغي أن يفوته ورد قيام الليل، وليكن بعد النصف الأول، فليطل مهما قدر، وليمثل رحيله عن قرب ليقصر أمله. نسأل الله ﷻ يقظة من فضله، وإقبالًا على خدمته، وأن لا يخذلنا بالالتفات عنه، إنه قريب مجيب.

١٥٤ ـ من اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن الحق تعالى

رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم، فهمُّ الفقيه التدريس، وهمّ الواعظ الوعظ، فهذا يراعي درسه فيفرح بكثرة من يسمعه، ويقدح في كلام من يخالفه، ويمضي زمانه في التفكر في المتناقضات، ليقهر من يجادله. وعينه إلى التصدر والارتفاع في المجالس، وربما كانت همته جمع الحطام، ومخالطة السلاطين. وهذه قلوب غافلة عن الله ﷻ، إذ لو كانت لها به معرفة لاشتغلت به، وكان أنسها بمناجاته، وإيثارها لطاعته، وإقبالها على الخلوة به، لكنها لمّا خلت من هذا تشاغلت بالدنيا، فإذا خلت بخدمة الله تعالى لم تجد لها طعمًا، وهذه علامة الخذلان. وعلى ضد هذا متى كان العالم مقبلًا على الله سبحانه مشغولًا بطاعته، كان أصعب الأشياء عنده لقاء الخلق ومحادثتهم وأحب الأشياء إليه الخلوة، وكان عنده شغل عن طلب الرياسة، والنفس لا بد لها مما تتشاغل به، فمن اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن الحق، فإنما يربي رياسته، وذلك يوجب الإعراض عن الحق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه[١].

---

(١) أي: لا يجتمع حب الدنيا وحب الآخرة في قلب واحد فإما الدنيا =

١٥٥ ـ معرفة الخالق

كلما أوغلت الفهوم في معرفة الخالق فشاهدت عظمته ولطفه ورفعته، تاهت في محبته فخرجت عن حد الثبوت.

وقد كان خلق من الناس غلبت عليهم محبته فلم يقدروا على مخالطة الخلق، ومنهم من لم يقدر على السكوت عن الذكر، وفيهم من لم ينم إلا غلبة، وفيهم من هام في البراري. كان أبو عبيدة الخواص قد غلبه الوجد فكان يمشي في الأسواق ويقول: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه، وكان فتح بن سخرف يقول: قد طال شوقي إليك فعجّل قدومي عليك.

هل شاهدت ماءً صافيًا أصفى من دموع المتأسفين؟ هل رأيت رؤوسًا مائلة كرؤوس المنكسرين، هل لصق بالأرض أحسن من جباه المصلين!

١٥٦ ـ الرجل هو الذي يحفظ الحدود ويخلص العمل

لا يغرك من الرجل طنتنته وما تراه يفعل من صلاة وصوم وصدقه وعزلة عن الخلق. إنما الرجل هو الذي

= وإما الآخرة.

يراعي شيئين: حفظ الحدود، وإخلاص العمل، فكم قد رأينا متعبدًا يخرق الحدود بالغيبة وفعل ما لا يجوز مما يوافق هواه.

فالرجل كل الرجل هو الذي يراعي حدود الله، وهي ما فرض عليه ويلتزم به، ويحسن القصد، فيكون عمله وقوله خالصًا لله تعالى، لا يريد به الخلق ولا تعظيمهم له. فرب خاشع ليقال ناسك، وصامت ليقال خائف، وتارك للدنيا ليقال زاهد.

فالمخلص مفرد له بالقصد، والمرائي قد أشرك ليحصل له مدح النّاس، وذلك ينقلب؛ لأن قلوبهم بيد من أشرك معه، فهو يقلبها عليه لا إليه.

١٥٧ ـ عند الابتلاء يبين إيمان المؤمن

يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثرًا للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق جلَّ جلاله أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجا والدعا. فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقًّا في الإجابة.

أما سمعت قصة يعقوب عليه السلام، بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير، فلما ضم إلى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣]، وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة]، ومعلوم أن هذا لا يصدر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج. ومن هذا قول رسول الله ﷺ: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**، قيل له: وما يستعجل قال: **يقول: دعوت فلم يستجب لي**»، فإياك إياك أن تستطيل زمن البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء.

١٥٨ ـ سبب دخول جهنم هو المعاصي

تذكرت في سبب دخول جهنم فإذا هو المعاصي، فنظرت في سبب دخول جهنم فإذا هو المعاصي، فنظرت في المعاصي فإذا هي حاصلة من طلب اللذات، فنظرت في اللذات فرأيتها خدعًا ليست بشيء، وفي ضمنها من

الأكداء ما يصيرها نغصًا فتخرج عن كونها لذات، فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار.

فمن اللذات الزنى، وإن كان ولد من الزنى فالفضيحة دائمة، والعقوبة التامة، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق، ومن ذلك شرب الخمر، فإنه تنجيس للفم والثوب، وإبعاد للعقل، فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة تجني عقابًا وذهاب جاه، وربما خرج بالعربدة إلى القتل.

١٥٩ ـ العقل السليم نجاة

من وقف على موجب الحس هلك، ومن تبع العقل سلم؛ لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا، وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات، فيعلم وجود الخالق قد منح وأباح وأطلق وحظر، أخبر أني سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودي عندكم **بترك ما تشتهون طاعة لي**، وأني قد بنيت لكم دارًا غير هذه لإثابة من يطيع وعقوبة من يخالف.

١٦٠ ـ العلم والعقل

معرفة الله سبحانه لا تحصل إلا لكامل العقل.. صحيح المزاج. وإن أقوامًا قلّت عقولهم وفسدت أمزجتهم

فساءت مطاعمهم وقلّت، فتخايلت لهم الخيالات الفاسدة، ولم يكن عندهم من العلم ما يصدهم عمّا ادعوا فهلكوا.

وإنما العاقل العالم يسير في الطريق بين الرفيقين العلم والعقل، فإن تقلل من الطعام فبعقل، وحدّ التقلل ترك فضول المطعم وما يخاف شره من شبهة أو شهوة يُحذر تعودها، وأما زيادة التقلل مع القدرة فليس لعقل ولا لشرع... إلا أن يكون الفقر عمّ فيتقلل ضرورة، ومن تأمل حال رسول الله ﷺ وأصحابه، وجدهم يأخذون بمقدار، ولا يتركون حظوظ النفس التي تصلحها.

وما أحسن الأمر وأعدله قول رسول الله ﷺ: «**ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس**»[1].

وقد قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض: «**أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا**»[2]، وكان ﷺ يشاور الأطباء ويحتجم ويحث على التداوي ويقول: «**ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء فتداووا**»[3] فجاء أقوام جهلوا العلم والحكمة في بنيان الأبدان، ومنهم من قلل

---

(١) صحيح الجامع.

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) صحيح الجامع الصغير.

المطعم إلى أن ضعفت قواهم، فأوجبت هذه الأفعال أمراضًا في البدن، وترقت إلى إفساد العقل، فإن البدن مبني على أخلاط إذا اعتدلت وقعت السلامة، وإذا زاد بعضها وقع المرض. فأما أهل العلم والعقل فهربهم من الخلق لخوف المعاصي ورؤية المنكر، وفيهم من قويت معرفته فشغلته معرفة الحق ومحبته من ملاقاة الخلق، فهذه هي الخلوات الصافية؛ لأنها تصدر عن علم وعقل فتحفظ البدن، ولينظر في طريق رسول الله ﷺ وصحابته فإنهم القدوة.

ينبغي لمن رزق فهمًا أن يسعى في صلاح بدنه، ولا يحمل عليه ما يؤذيه، ولا يناوله من القوت ما لا يوافقه، ولا يضيع ماله، وليجتهد في استثماره لئلا يحتاج، فإنه ما نافق زاهد إلا لأجل الدنيا، ولينظر في سير الكاملين من السلف، وليتشاغل بالعلم، فإنه الدليل، فحينئذ يحمله الأمر على الخلوة بربه، والاشتغال بحبه. والله الموفق.

١٦١ ـ لعب الدنيا بالعقول

رأينا جماعة من الفطناء الكاملي العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالمجانين، فولوا الولايات فخرجوا إلى القتل والضرب والحبس والشتم وذهاب الدين،

والمباشرة للظلم كله لأجل دنيا تذهب سريعًا، وفي مدة إقامتها هي معجونة بالنغص. فيا أيها المرزوق عقلًا لا تبخسه حقه، ولا تطفي نوره، ولا تلتفت إلى بكاء طفل الطبع لفوات غرضه، فإنك إن رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه، ولم يمكنك تأديبه.

لا تسه عن أدب الصغير
ولو شكا ألم التعب
ودع الكبير لشأنه
كبر الكبير عن الأدب

واعلم أن زمان الابتلاء ضيف قراه[1] الصبر، كما قال أحمد بن حنبل: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، فلا تنظر إلى لذة المترفين، وتلمح عواقبهم، ولا تضق صدرًا بالمعاش.

ومر بشر على بئر، فقال له صاحبه: أنا عطشان، فقال: البئر الأخرى، فمر عليها، فقال له: الأخرى، ثم قال: كذا تقطع الدنيا.

وبعد هذا فلا أطالبك بهذه الرتبة، بل أقول لك: إن حصل لك شيء من المباح لا منَّ فيه ولا أذى ولا نلته

(١) ما يقدم للضيف من إكرام.

بسؤال ولا من يد ظالم تعلم أن ماله حرام أو شبهة، فافسح لنفسك في مباحاتها بمقدار ما تحتاج إليه، وكن مقدرًا للنفقة غير مبذر، فإن الحلال لا يحتمل السرف، ومتى أسرفت احتجت إلى التعرض[1] للخلق، وإن ضاق بك أمر فاصبر، فإن ضعف الصبر فصل فاتح الأبواب، فهو الكريم وعنده مفاتيح الغيب.

ومن صفا نظره وتهذب لفظه، نفع وعظه، ومن كدِر كُدِّر عليه، والحالة العالية في هذا إقبال القلب على الله ﷻ، والتوكل عليه والنظر إليه، والتفات القلب عن الخلق، فإن احتجت فاسأله، وإن ضعفت فارغب إليه، ومتى ساكنت الأسباب انقطعت عنه، ومتى استقام باطنك استقامت لك الأمور.

١٦٢ ـ الأنس بالله

رأيت نفسي تأنس بخلطاء نسميهم أصدقاء فبحثت التجارب عنهم فإذا أكثرهم حساد على النعم، وأعداء لا يسترون زلة ولا يعرفون لجليس حقًّا، ولا يواسون من مالهم صديقًا فتأملت الأمر، فإذا الحق سبحانه يغار على

(١) السؤال.

قلب المؤمن أن يجعل له شيئًا يأنس به، فهو يكدّر عليه الدنيا وأهلها ليكون أنسه به.

فينبغي أن يعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق، بل تحسبهم أعداء، ولا تظهر سرك لمخلوق منهم، ولا تعُدَّن من يصلح لشدة لا ولدًا ولا أخًا ولا صديقًا، بل عاملهم بالظاهر، ثم انفر عنهم واقبل على شأنك متوكلًا على خالقك، فإنه لا يجلب الخير سواه، ولا يصرف السوء إلا إياه، فليكن جليسك وأنيسك وموضع توكلك وشكواك، فإن ضعف صبرك فاستغث به، وإن قلَّ يقينك فسله القوة، وإياك أن تميل إلى غيره، فإنه غيور، وأن تشكو من أقداره، فربما لم يحتمل. أوحى الله عز وجل إلى يوسف عليه السلام: من خلصك من الجب، من فعل من فعل؟ قال: أنت. قال: فلم ذكرت غيري.. فلأطيلن حبسك، أو كما قال. هذا وإنما تعرض يوسف عليه السلام بسبب مباح: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

وما أعرف العيش إلا لمن يعرفه ويعيش معه ويتأدب بين يديه في حركاته وكلماته كأنه يراه، ويقف على باب طرفه حارسًا من نظرة لا تصلح، وعلى باب لسانه حافظًا له من كلمة لا تحسن، وعلى باب قلبه حماية لمسكنه من

دخول الأغيار، ويستوحش من الخلق شغلًا به، وهذا يكون على سيرة الروحانيين.. فأنا المخلِّط فالكدر غالب عليه. والمحق لا يطلب إلا الأرفع.

١٦٣ ـ المعاصي تسدّ أبواب الرزق

رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده.

فالقارئ مشغول بالروايات، يرى أن المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمح عظمة المتكلم، ولا زجر القرآن ووعده، وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص الذنوب. ولو فهم لعلم أن الحجة عليه أقوى ممن لا يقرأ.

وعلى هذا أكثر الناس، صور العلم عندهم صناعة: فهي تكسبهم الكبر والحماقة.

وقد حكى بعض المعتبرين عن شيخ أفنى عمره في علوم كثيرة، أنه فتن آخر عمره بفسق أصر عليه، وبارز الله به، وكانت حاله تعطي بمضمونها أن علمي يدفع عني شر ما أنا فيه ولا يبقي له أثر، كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة، فلا يرى عنده أثر لخوف ولا ندم على ذنب قال: فتغير في آخر عمره ولازمه الفقر، فكان يلقى الشدائد ولا ينتهي عن

قبح حاله، إلى أن جَمعتُ له يومًا قراريط على وجه الكدية[1] فاستحيا من ذلك وقال: يا رب إلى هذا الحد، قال الحاكي: فتعجبت من غفلته كيف نسي الله ﷻ، وأراد منه حسن التدبير له والصيانة وسعة الرزق، وكأنه ما سمع قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن]، ولا علم أن المعاصي تسد أبواب الرزق، وأن من ضيّع أمر الله ضيّعه الله، فما رأيت علمًا ما أفاد كعلم هذا؛ لأن العالم إذا زل انكسر، وهذا مصرٌّ لا تؤلمه معصيته، وكأنه يجوز له ما يفعل، أو كأن له التصرف في الدين تحليلًا وتحريمًا، فمرض عاجلًا ومات على أقبح حال.

نسأل الله ﷻ يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود.

١٦٤ ـ قلّة العقل وسوء النظر

ليس للآدمي أعز من نفسه، وقد عجبت ممن يخاطر بها ويعرضها للهلاك، والسبب في ذلك قلة العقل وسوء النظر، فمنهم من يعرضها للتلف ليمدح... مثل قوم

---

(١) شدة الدهر.

يخرجون إلى قتل السبع[1].

وأعجب من الكل من يخاطر بنفسه في الهلاك ولا يدري، مثل أن يغضب فيقتل المسلم فيشفي غيظه بالتعذيب في جهنم.

والعجب بمن يهمل النظر فيما إذا توانى فيه أوجب الخلود في العقاب الدائم، وأعجب من الكل جاحد الخالق وهو يرى إحكام الصنعة ويقول لا صانع.

والسبب في الأشياء كلها قلة العقل وترك إعماله في النظر والاستدلال.

١٦٥ ـ سبب طيب العيش

العزلة عن الخلق سبب طيب العيش، ولا بد من مخالطة بمقدار، فدار العدو واستمله، فربما كادك فأهلك، وأحسن إلى من أساء إليك، واستعن على أمورك بالكتمان، ولتكن الناس عندك معارف، فأما أصدقاء فلا؛ لأن أعز الأشياء وجود صديق، فإن صادقته عاميًّا لم تنتفع به لسوء أخلاقه وقلة علمه وأدبه.

فإن أردت العيش فابعد عن الحسود؛ لأنه يرى

---

(١) الأسد.

نعمتك فربما أصابها العين، فإن اضطررت إلى مخالطته فلا تفش إليه سرك ولا تشاوره ولا يغرنك تملقه لك، ولا ما يظهره من الدين والتعبد، فإن الحسد يغلب الدين، وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد إلى القتل، وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نزع الحسد والغل من صدورهم، ولولا أنه نزع تحاسدوا وتنغص عيشهم.

١٦٦ ـ مخالفة الهوى سعادة ونجاة

من سار مع العقل وخالف طريق الهوى، ونظر إلى العواقب أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما تمتع من استعمل الشهوات. فأما المستعجل فيفوِّت نفسه حظ الدنيا والذكر الجميل، ويكون ذلك سببًا لفوات مراده من اللذات.

وكذلك من غش في معاملته أو خان، فإنه لا يُعامل فيفوته ربح المعاملة الدائمة لخيانته مرة، ولو عُرف بالثقة زادت معاملة الناس له فزاد ربحه. والثاني أنه من اتقى الله وتشاغل بالعلم أو تحقيق الزهد، فتح له من المباحات ما يلتذ به كثيرًا.

ومن تقاعد به الكسل عن العلم، أو الهوى عن تحقيق الزهد لم يحصل له إلا اليسير من مراده. قال ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن].

١٦٧ ـ كيفية العيش مع الخالق سبحانه

ينبغي أن يكون العمل كله لله ومعه ومن أجله، وقد كفاك كل مخلوق عليل في الحال، ويفوتك المقصود في الحديث: «**من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس**»[١]، وأطيب العيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه، فإن قيل: كيف يعيش معه، قلت: بامتثال أمره، واجتناب نهيه، ومراعاة حدوده، والرضا بقضائه، وحسن الأدب في الخلوة، وكثرة ذكره، وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره، فإن احتجت سألته، فإن أعطى وإلا رضيت بالمنع، وعلمت أنه لم يمنع بخلًا، إنما نظرًا لك، ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته وصدق التوكل عليه، فصارت المحبة تدلك على المقصود، وأثمرت لك محبته إياك، أن تعيش عيش الصديقين. ولا خير في عيش إن لم يكن كذلك، فإن أكثر الناس مخبّط في عيشه، يداري الأسباب ويميل إليها بقلبه، ويتعب في تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد، ويرغب إلى الخلق ويعترض عند

---

(١) صحيح الجامع الصغير.

انكسار[1] الأغراض، والقدر يجري ولا يبالي بسخطه، ولا يحصل له إلا ما قُدِّر، وقد فاته القرب من الحق والمحبة له، والتأدب معه، فذلك العيش عيش البهائم.

١٦٨ ـ من مال إلى تدبير العقل سلم في دنياه وآخرته

مقتضى العقل أن يكون التناول للمطعم والمشرب مقدار الحاجة والمصلحة، ليقع الالتذاذ بالعافية.

ومن البلية الالتذاذ بالمطعم والشره في تناوله.

ومن الحزم جمع المال وادخاره لعارض حاجة.

ومن التغفيل إنفاق الحاصل، فربما عرضت حاجة فلم يقدر عليها فأثر عدمها في البدن أو في العرض بطلبها من الأنذال.

فمن مال إلى تدبير العقل سلم في دنياه وآخرته، ومن أعرض عن مشاورته أو عن القبول منه تعجل عطبه. فليفهم مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها، فمن لم يفهم ولم يعمل بمقتضى ما فهم كان كأجهل العوام، وإن كان عالمًا.

---

(١) عدم حصول المراد.

١٦٩ ـ الحازم من استعد للموت

العاقل من تأمل العواقب ورعاها، وصوّر كلما يجوز أن يقع فعمل بمقتضى الحزم، وأبلغ من هذا تصوير وجود الموت عاجلًا؛ لأنه يجوز أن يأتي بغتةً من غير مرض، فالحازم من استعد له، وعمل عمل من لا يندم إذا جاءه، وحذر من الذنوب فإنها كعدو مراصد بالجزاء، وادخر لنفسه صالح الأعمال فإنها كصديق صدِّيق ينفع في وقت الشدة. وأبلغ من كل شيء أن يعلم المؤمن أنه كلما زاد عمله في الفضائل علت مرتبته في الجنّة، فرحم الله من تلمح العواقب، وعمل بمقتضى التلمح.

١٧٠ ـ هلاك الهالكين بقلة الصبر عن المشتهى

اطلعت على سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعبًا أذهب دنياهم.

فمن الأمراء من يقتل ويحبس بغير حق، ثم ينخرط في سلك المعاصي كأن الأمر إليه، أو قد جاءه الأمن من العقاب. فربما تخايل أن حفظي الرعايا يرد عني، وينسى

أنه قد قيل لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام]. وقد انخرط جماعة يتسم بالعلم في سلك المعاصي لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم.

وهذا لأن الدنيا فخ والناس كعصافير، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق، قد نسي أكثر الخلق مآلهم ميلًا إلى عاجل لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل، فلقد باعوا بلذة يسيرة خيرًا كثيرًا، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذابًا عظيمًا، فإذا نزل بأحدهم الموت قال: ليتني لم أكن، ليتني كنت ترابًا، فيقال له الآن: فوا أسفي لفائت لا يمكن تداركه، ولندم لا ينقطع زمانه، ... بالله ما نفعت العقول إلا لمن يلتفت إليها ويعول عليها! ولا يمكن قبول مشاورها إلا بعزيمة الصبر عما يشتهي، وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المُشتهى.

١٧١ ـ المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه

المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه، وهذه محنة قد عمَّت أكثر الخلق، فترى اليهودي والنصراني يرى أنه على الصواب، ولا يبحث ولا ينظر في

دليل نبوة نبينا ﷺ، وإذا سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع، وكذلك كل ذي هوى.

١٧٢ ـ الجزاء بالمرصاد

فصل ينبغي تأمله. اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كانت حسنة أو كان سيئة، ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة، وقلَّ من فعل ذنبًا إلا وقوبل عليه.

قال ﷻ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

هذا آدم عليه السلام أكل لقمة فقد عرفتم ما جرى عليه، وقال ابن سيرين: عيّرت رجلًا بالإفلاس فأفلست، وقال آخر: قد عبت شخصًا قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت أسناني، ونظرت إلى امرأة لا تحل، فنظر إلى زوجتي من لا أريد.

وأنا أقول عن نفسي: ما نزلت بي آفة أو غم أو ضيق صدر إلا بزلل أعرفه حتى يمكنني أن أقول: هذا بالشيء الفلاني، وربما تأولت فيه بعد، فأرى العقوبة. فينبغي للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب فقل أن يسلم منه، وليجتهد في التوبة.

فقد روي في الحديث ما من شيء أسرع لحاقًا بشيء من حسنة حديثة لذنب قديم، ومع التوبة يكون خائفًا من المؤاخذة متوقعًا من المؤاخذة متوقعًا لها، فإن الله تعالى قد تاب على الأنبياء عليهم السلام، وفي حديث الشفاعة يقول آدم ذنبي ويقول إبراهيم وموسى ذنبي.

قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فإنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: يا رسول الله أو نجازى بكل ما نعمل؟ فقال: «**ألست تمرض، ألست تحزن، أليس يصيبك اللأواء**[١] **فذلك ما تجزون به**». وأما المعنى فإن المؤمن إذا تاب وندم كان أسفه على ذنبه في كل وقت أقوى من كل عقوبة، فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم، ثم آثر لذة المعصية لحظة.

١٧٣ ـ حساب النفس

تفكرت في نفسي يومًا تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، وزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الرباني، فمن بدء الطفولة وإلى الآن وأنا أرى لطفًا بعد لطف، وسترًا على قبيح، وعفوًا عما يوجب عقوبة، وما أرى لذلك شكرًا

---

(١) اللأواء: الشدائد.

إلا باللسان، ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعًا، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت.

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، وقعت بتأويلات فاسدة، فصرت إذا دعوت أقول: اللَّهُمَّ بحمدك وسترك علي اغفر لي، ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي، ثم أنا أتقاضى[1] القدر مراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه ولا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، والله ما التفت قط إلا وجدت منه سبحانه برًّا يكفيني، ووقاية تحميني، مع تسلط الأعداء، ولا عرضت حاجة فمددت يدي فقضاها.. هذا فعله معي وهو رب غني عني، وهذا فعلي وأنا عبد فقير إليه، ولا عذر لي فأقول ما دريت أو سهوت. يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله. اللَّهُمَّ توبة خالصة من هذه الأقذار.. ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، وليس لي إلا التأسف والندم، فوالله ما عصيتك جاهلًا بمقدار نعمتك، ولا ناسيًا لما أسلفت من كرمك فاغفر لي سالف فعلي.

---

(١) أطالب.

١٧٤ ـ عداوة الأقارب

عداوة الأقارب صعبة، وربما دامت كحرب. والسبب في هذا أن كل واحد من الأقارب يكره أن يفوقه قريبه فيقع التحاسد، فينبغي لمن فضل على أقاربه أن يتواضع لهم، ويرفعهم جهده، ويرفق بهم لعله يسلم. قال رجل لرسول الله ﷺ: لي أقارب أصلهم فيقطعوني فقال: «**فكأنما تسفهم المل، ولن يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك**»[١].

١٧٥ ـ الحسد

المؤمن العاقل لا يلتفت إلى حاسده ولا يعدّه شيئًا، إذ هو في واد وذاك في واد.. ذاك يحسده على الدنيا، وهذا همته الآخرة، فيا بعد ما بين الواديين.

١٧٦ ـ أفعال الحق سبحانه

ملاحظته من أهم الأشياء، ينبغي لمن آمن بالله تعالى أن يسلم له في أفعاله، ويعلم أنه حكيم ومالك، وأنه لا

(١) أخرجه أحمد.

يغيب. وأن أقوامًا نظروا بمجرد العقل إلى كثير من أفعال الحق سبحانه فرأوها لو صدرت من مخلوق نُسب فيها إلى ضد الحكمة، فنسبوا الخالق إلى ذلك، وهذا الكفر المحض، والواجب نسبة الجهل إلى النفوس، فإن العقول قاصرة عن مطالعة حكمته. وأكثر هؤلاء المعترضين لا يكادون يسلمون وقت خروج الروح من اعتراض يخرج إلى الكفر فتخرج النفس كافرة، فكم عامي يقول: فلان قد ابتلي وما يستحق، ومعناه أنه قد فعل به ما لا يليق بالصواب، وقد قال بعض الخلعاء:

أيا ربِّ تخلق أقمار ليل
وأغصانَ بانٍ وكثبان رملِ
وتنهى عبادك أن يعشقوا
أيا حاكم العدل ذا حكمُ عدل؟

وهذا كفر محض؛ لأنه تعالى ما نهى عن العشق وإنما نهى عن العمل بمقتضى العشق من الأشياء المحرمة؛ كالنظر واللمس والفعل القبيح، وفي الامتناع عن المشتهى دليل على وجود الناهي؛ كصبر العطشان في رمضان عن الماء، فإنه دليل على الإيمان بوجود من أمر بالصوم، وتسليم النفوس إلى القتل والجهاد دليل على اليقين بالجزاء.

ثم المستحسن أنموذج ما قد أعد فأين العقل المتأمل؟ كلا. لو تأمل وصبر قليلًا لربح كثيرًا. فيا معترضين وهم في غاية النقص على من لا عيب في فعله.. أنتم في البداية من ماء وطين، وفي الثاني من ماء مهين، ثم تحملون الأنجاس على الدوام، ولو حبس عنكم الهواء لصرتم جيفًا.

فمتى ما جرى أمر لا تعرف علَّته فانسل ذلك إلى قصور علمك، وقد ترى مقتولًا ظلمًا وكم قتل وظلم حتى قوبل ببعضه وقلَّ أن يجري **لأحد آفة إلا ويستحقها**، فسلّم تسلم، واحذر كلمة اعتراض أو إضمار، فربما أخرجتك من دائرة الإسلام.

١٧٧ ـ الأعمال بالنيات

فصل يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد: يا قوم قد علمتم أن الأعمال بالنيات. وقد فهمتم قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقد سمعتم عن السلف أنهم كانوا لا يعلمون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح. أيذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح! وترفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة أو ما سمعتم «**من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به**

السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، لم يرح رائحة الجنّة»[1]، ثم يقدم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها، وقد كان السلف يتدافعونها.

كان ابن سيرين يضحك ويقهقه فإذا خلا بكى أكثر الليل. آه للمرائي من يوم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات]، وهي النيات. فأفيقوا من سكركم، وتوبوا من زللكم، واستقيموا على الجادة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

* * *

(١) صحيح الجامع الصغير.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة